أمل بوشارب

عليها ثلاثة عشر

قصص

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب، 2014.
10، نهج ابراهيم غرفة، باب الواد، الجزائر.
www.chihab.com

ردمك : 978-9947-39-066-5
الإيداع القانوني : 1177 - 2014

أمل بوشارب

عليها ثلاثة عشر...

مجموعة قصصية

منشورات الشهاب

سيجارتها

جلست على الكرسي وأخرجت من حقيبتها الجلدية الرمادية علبة المارلبورو الأنيقة وسحبت ببطء آخر سيجارة بقيت في داخلها. من الواضح أنها دخنت كثيرا في اليومين الأخيرين. كانت مدخنة شرهة على العموم، إلا أنها عادة ما تفرط في التدخين عندما يكون هناك أمر ما يقض مضجعها. ها هي تسحب أول نفس منها... إنها اليوم لا تبدو متوترة... هاهي تحبس الدخان قليلا داخل رئتيها... من الواضح أنها مستمتعة... وهاهي تنفثه بكل تؤدة من بين شفتيها... لابد أنها تعيش مرحلة من أهم مراحل الانفراج في حياتها.

كانت سيادتها تبدو متلذذة جدا بها... من الواضح أنها تدخن بمزاج كبير. كانت تبدو وكأنها تحاول إغاظة

أحد ما مع كل نفس كانت تسحبه من تلك السيجارة الرفيعة المصممة خصيصا للنساء لتعود وتنفثه بكلبية شديدة وهي تمط شفتها العليا بنصف ابتسامة ساخرة، لتعود وتسحب نفسا آخر، تعيد معه نفس المشهد الذي لم تمل من تكراره منذ جلوسها على الكرسي. كان منظر استمتاعها بتلك السيجارة يشبه المتعة السادية. كانت تتلذذ وهي تنفض رماد السيجارة بعد كل نفسين، بحركة خفيفة، ثم تعود لتأخذ نفسا أعمق منها، وتنفث دخانها مجددا بحركة بطيئة. ستأتي نهايتها عن قريب. كانت تفضل أن تأتي ببطء... ببطء شديد. ليس قبل أن تستمتع بقتلها مع كل نفس كانت تأخذه منها. وبحركة مباغتة كبست رأسها بقسوة شديدة بطرفي إصبعيها الثخينتين، وتأكدت من القضاء عليها كليا. ابتسمت وهي تنظر إلى بقايا رمادها في صحن السجائر ودقات قلبها ترقص نصرا. لقد قضت عليها... ولكن، سرعان ما شعرت بعدم الاكتفاء، وعادت للبحث عن سيجارة أخرى. خضّت علبة السجائر التي سحبت آخر نفس منها، لكنها كانت فارغة. ألقتها بعنف في سلة النفايات من أمام مكتبها، ثم عادت للبحث في حقيبتها. نعم توجد علبة

أخرى. ارتسمت على وجهها ابتسامة نصر أخرى. فتحتها وسحبت أول سيجارة منها.

كان يبدو وكأنها كانت مصممة على الانتهاء منها في ذلك اليوم. نظرت إلى طرفها بسخرية وهي توقدها. إنها تغيظها. لطالما دخنتها وهي تشعر بالتوتر. كانت لا تبغي إلا تهدئة أعصابها من خلالها. لم تكن تشعر حتى بطعمها. كانت هي الوحيدة التي تعرف كل لحظات توترها وضعفها. لم تكن سيادتها لتَظهر بأي مظهر من مظاهر الضعف أو التوتر أو القلق أمام خصومها. لكن هذه السيجارة الرفيعة هي الوحيدة التي كانت تعرف أشد لحظات ضعفها.كانت تبدو من دون حول ولا قوة في حضرتها. إنها اليوم تقتلها بلذة، وبمزاج عال، بل وتراقب بدقة كل لحظة من لحظات موتها. اليوم تريد أن تنتصر عليها ليس بالنقاط فحسب... لكن بالضربة القاضية. اليوم ستكون نهايتها. نعم، اليوم ستكون نهايتها.

تناولت بسرعة سماعة المحول الهاتفي وطلبتها. تركت كل شيء من يدها، وانطلقت مهرولة إلى مكتبها. كانت سيادتها لا تحب أحدا أن يتأخر عليها. كانت تخشى جدا

من عصبيتها. في الواقع كانت هي الأخرى تعرف إلى جانب سيجارتها البعض من عصبيتها... والكثير من ضعفها. كانت تلك هي سكرتيرتها... كانت تلك هي كاتمة أسرارها.

– التقرير جاهز يا سيدتي...

قالت بخنوع وهي تقف كتلميذة مهذبة أمام معلمتها وتضع أمامها الواجب المنزلي الذي أمرتها في وقت سابق بإعداده.

أخذت نفسا عميقا من سيجارتها الرفيعة التي لم يكن عودها النحيل يتلاءم مع ثخن الإصبعين اللذين كانا يطبقان على رقبتها. كانت تبدو مستضعفة... كانت تبدو حقا مضطهدة أمامها... لكنها كانت مصرة على ألا ترحمها... كانت مصرة على الانتقام منها. ابتسمت وهي تقرأ التقرير. إنها الأقوى. إنها هي الأقوى. رفعت رأسها ببطء ونثرت بحركة رشيقة رماد سيجارتها. وبحركة خاطفة نظرت إليها نظرة مبهمة لكن يبدو أنها قد فهمت قصدها... لقد كانت تفهم صوت عينيها...

أتت كعادتها على الساعة الثامنة...

من الواضح أنها كانت تفهم جميع نظراتها وحركاتها وسكناتها. لقد كانت سكرتيرتها... لقد كانت حافظة أسرارها...

والبارحة لم تخرج إلا في وقت متأخر. أخبرتني مساعدتها أنها تعمل بجد على مشروعها...

تناولت فنجان القهوة، وارتشفت منه شفة وهي لا تزال تحدجها...

لم يزرها اليوم أحد في مكتبها، ولكنها تلقت الكثير من الاتصالات على هاتفها...

بدا عليها بعض الاضطراب. ولكنها سارعت لتهدئتها... من الواضح أنها كانت تفهم حتى صوت رأسها...

– لابد أنها اتصالات شخصية...

نتشت السيجارة بعنف من بين شفتيها، ونفثت بحركة مباغتة كل ما كان بداخلهما من دخان... كان ذلك يعني أنها لم تكن راضية...

– لقد أكدت لي ذلك أيضا مساعدتها... لفظت الكلمات بارتعاش وهي تتلعثم. لقد أكدت لي ذلك مساعدتها بنفسها...

وتابعت سرد تقريرها الشفوي، وهي تحرص ألا تخطئ في أي من التفاصيل. كانت تستميت في ذكر كل شيء عنها. كانت كلها تفاصيل مهمة بالنسبة لها : لون سترتها، طول كعبها، تسريحة شعرها... كانت تعلم أن سيادتها تأخذ تقريرها عنها من أكثر من جهة ولم يكن من مصلحتها أن تخطئ في أي من التفاصيل. إنها لحد الآن من أكثر المقرّبين إليها. لم تكن تريد أن تخسر ثقتها. إنها سكرتيرتها... إنها حافظة أسرارها.

خرجت وأقفلت الباب وراءها. فرغت من سيجارتها... كبست رأسها بقوة، وهي تشعر بذات النشوة التي رافقت إشعالها لها. كانت تشعر بسلطتها... كانت تشعر بقوتها... كانت تشعر بأنها تتحكم في كل شيء من حولها.

تناولت الآن ما بدا لها للحظات وهي تقرأه أشد إمتاعا من سيجارتها. تأملت التقرير الذي طبعته لها السكرتيرة لتوها وأخذت تتأمله بلذة لا تضاهيها لذة... بهذا التقرير ستقضي عليها... لم يكن من الممكن أن تتمالك نفسها أكثر من شدة المتعة التي تملّكتها وتناولت

مجددا سيجارتها... نعم ستقضي عليها... ستقضي حتما عليها.

صحيح أنها كانت أصغر بكثير منها، ولكنها كانت تزعجها... كانت تبدو طموحة جدا وأما هي فقد كانت محنّكة جدا... كانت تعلم جيّدا أنها تشكّل خطرا كبيرا عليها... لم تكن تتأخر يوما عن دوامها... كانت متفانية جدا في نشاطاتها... مخلصة جدا في عملها... دقيقة جدا في حساباتها... ببساطة... تجاوزت كثيرا حدودها... ومن الواضح أنها تلعب على منصبها... كانت تلك موظفة سامية في إدارتها... صحيح أنها لم تكن تحمل مؤهلاتها، فحسب التقارير اليومية التي كانت تصلها يبدو أنها لم تكن مستعدة لتقديم التنازلات التي قدمتها هي للجلوس على كرسيها، لكن الحذر واجب على أي حال. أخذت آخر نفس من سيجارتها. تأملت بلذة تقريرها... بهذا ستزيلها عن طريقها... ولكن وفي غمرة نشوتها، شعرت فجاة بشيء ما يلسع إصبعيها. كانت تلك سيجارتها. وبحركة غريزية ألقتها من يدها. لقد انتهت من دون أن تنتبه لها. أخذت تفرك إصبعيها،

وفجأة انتبهت إلى أن رماد سيجارتها قد لوث جميع أوراقها، سارعت لإنقاذ تقريرها، حملته... نفضته... تاملته... ضمته إلى صدرها... إنه مخلصها... نعم، إنه هو من سيخلّصها منها.

****

جلست إلى المكتب وتناولت علبة المارلبورو من حقيبتها الجلدية السوداء. كانت تقوم بطقسها المعتاد. ستدخن سيجارتها الرفيعة المصممة خصيصا للنساء بلذة، بل وبلذة خاصة اليوم. لذة أكبر من أي لذة تذوقتها من قبل. لم تعد موجودة هنا. لقد تخلصت منها. والآن فتحت العلبة بهدوء... بحثت عن سيجارتها... لكنها لم تجدها. رجّت العلبة... كانت فارغة. خضتها مرة أخرى. وبعنف ألقتها في النفايات قرب مكتبها. قلبت حقيبتها، لابد من أن هناك علبة أخرى... أخذت تفتش في كل الزوايا عنها لكنها لم تجدها، بدأت تشعر بالتوتر، أيعقل أنها قد دخنتها كلها البارحة ؟... وفي غمرة توترها دخلت سكرتيرتها من دون إذن إلى مكتبها... أو بإذن لكنها لم تكن منتبهة... كانت متوترة... كانت تحمل لها الصحف... نظرت إليها

نظرة عنيفة وكأنها تصرخ في وجهها... بادرتها من دون أن تدعها تواصل رغيها وزبدها...

سيدتي... انظري ما الذي كتب عنك اليوم في الصحف...

نتشت الجرائد من يدها..كانت ترتعش... كانت تريد سيجارتها... يا لفضيحتها... قرأت الخبر وهي لا تصدق عينيها... كانت دقات قلبها تزداد تسارعا... لقد خذلتها... سيجارتها... أين هي... بدأ يرن هاتفها... لابد أن تجدها... لكن الهاتف كان يلح عليها... لابد أن تقضي عليها قبل أن تقضي عليها... لكنها لا تجدها... نظرت إلى الرقم الذي كان يتصل بها... لا، لا يمكن أن تتحدث قبل أن تجد سيجارتها... دخلت مساعدتها...

سيدتي، يريدون توضيحات...

صرخت في وجهها، انهارت على كرسيها، وبخنوع نكست عيني رأسها في الأرض وردت على هاتفها...

****

عليها ثلاثة عشر...

– إنهم الحاقدون على نجاح المرأة...

قالت وهي تحاول كتمان سعلاتها...

– نحن نعيش في مجتمع ذكوري يضطهد المراة، ولا يقبل حصولها على مناصب رفيعة...

كانت تحاول أن تبدو هادئة... لكن علامات التوتر بدأت تظهر من نبرة صوتها... كانت تريد الآن سيجارتها...

– اغاظهم نجاحي، الذي لا يعبر في الواقع إلا عن نجاح كل امرأة...

والآن بدأت سعلاتها الحادة تتغلب على كلماتها...

– إنهم يريدون التخلص من المرأة...

وفى هذه اللحظات بدا وكأن صوت سعلاتها ينتصر على وقع كلماتها...

– إنهم يغارون من نجاح المرأة...

وتلاحقت سعلاتها...

– إنهم يريدون خنق صوت المرأة...

إنها تختنق بها...

– يريدون قتلها... نعم، قتلها...

وهنا ألح عليها صوت رأسها بضرورة حضور سيجارتها... كانت الآن تريدها... إنها تريدها الآن بين يديها... من الواضح أنها لحد الآن لم تنجح في قتلها... إنها تريد الآن إمساكها... قتلها... خنقها... لكنها كانت مكبلة بسعلاتها... إنها تبدو مستضعفة... مضطهدة... مثيرة للشفقة... إنها تريدها... تريد قتلها... تريد إخراس صوت رأسها... والآن...

صمتت... كان لديها الكثير لتقوله عن نجاحها...

السّمراء

لم تكن تشعر يوما بالرضا عن لونها. كانت بشرتها السمراء الأدكن بقليل من لون الحنطة، والأفتح بقليل من لون الغُضار تشعرها بالنقص حيال قريناتها اللواتي لم يكنّ بدورهن شقراوات، لكنهن ربما كنّ ذوات بشرة أفتح بقليل أو بكثير من بشرتها. والواقع أن جميع فتيات قريتها، وربما كل نساء بلدتها كنّ سمراوات بدرجات متفاوتة، غير أن لونها على ما يبدو كان الأدكن بينهن جميعا... كان الجميع مهووسا بالبياض في تلك البلاد هوسه بالسياسة وبكرة القدم... لقد كانت جميع الفتيات يحاولن تبييض أنفسهن... لقد كان ذلك هو عصر موضة النقاء، ولم يكن يسمح للمرأة أن تكون غامقة اللون هناك... كان يتعين لكل فتاة تريد الحصول على لقب الممثلة في تلك البقعة من الأرض أن تحصل على لون

الطهارة بأي شكل من الأشكال... ولكن معها هي لم تتمكن كريمات التبييض إلا من تفتيح لون بشرتها بدرجة أو بدرجتين وهو ما لم يكن كافيا لاقتلاع صفة السمراء عنها، أما كريمات الأساس الفاتحة فلم تتمكن سوى من تحويل لون بشرتها إلى اللون الأزرق أو الرمادي... وهو ما لم يكن مبتغاها...

وعلى الرغم من أنها كانت تدّعي عدم اكتراثها بنعت « السمراء » الذي كان يلحق دوما بها من أجل تمييزها عن غيرها في المدرسة بل وفي كل قريتها، وهو الوصف الذي لم يكن يعني في الواقع سوى « الأكثر سمرة »، إلا أنه كان يشعرها من الداخل بشيء من الدونية. ومع ذلك لم تجرب يوما أن تعترض عليه علنا، وكانت تبقى صامتة. كان رجال المنطقة، الذين لم يكونوا هم الآخرون إلا سمرا، يعلنون صراحة ميلهم بل وتفضيلهم للفتاة الشقراء عن السمراء... دع عنك إن كانت الأكثر سمرة من بين السمراوات... لكنها مع ذلك لم تعلن يوما رفضها لذلك التمييز وكانت تبقى دوما صامتة.

كانت تعلم جيدا أنها لن تلفت أبدا انتباه الشباب إليها وذلك اللون ملتصق دوما بجسدها... كانت تعلم ان حظوظها اقل في الحصول على شاب يعجب بها في مكان يقل فيه عادة الرجال أصلا بسبب اشتعال المنطقة الدائم بالحروب، والذي حتى إن وجد فلن تقبل والدته بأن يرتبط ابنها بفتاة القرية السمراء أي بصراحة الفتاة الأكثر قبحا من بين الفتيات... نعم، فقد كانت تعتبر بشعة... لقد كان ذلك هو المعنى المسكوت عنه لصفة « السمراء » في مكان يقال إن صفة السمرة فيه ميزة جمال... لكن ولسبب من الأسباب... ما تخفيه الدلالات ليس هو دوما ما تشي به المدلولات...

عملت منذ صغرها على تعويض هذا « النقص » الذي كان ملازما لها بالدراسة. لقد كانت طالبة مجدة، وقد أثبتت ذلك بتفوقها طيلة سنوات دراستها وتميزها عن الجميع بمثابرتها و... ربما بذكائها... الذكاء الذي كان الجميع يعترف لها به وخصوصا ممن لم يكن يكف عن نعتها بالسمراء. كان الجميع يؤكد لها ذلك، وهم على قناعة شديدة به... كيف لا ؟ والله ينزع من عبده شيئا ويعوضه بشيء آخر ! لكن الأمر الذي كان مؤكدا

فعلا هو جديتها. لقد كانت حتما هي الفتاة الأكثر جدية بين جميع قريناتها اللواتي انصرفن في فترة مراهقتهن عن الدراسة إلى الانشغال بامور القلب والزينة والغنج والدلال، بينما كانت هذه الأمور محسومة بالنسبة لها منذ ولادتها... أمور بتّ فيها وقطع : لون بشرتها.

وهكذا درست... نجحت... تفوقت... وحصلت باستحقاق على منحة لإتمام دراستها الجامعية في أوروبا... نعم أوروبا التي كان يحلم بها كل شباب بلدتها الذين طالما تجاهلوها وهمّشوها بسبب لونها. الشباب الذي أعيته الحروب ودخانها، وقتامة المستقبل في ظلها... الشباب الذين كانوا يحلمون بالارتماء في حضن أوروبا ليغتسلوا بثلجها مما علق بهم من لون الحرب وسخامها... إنهم الآن يحسدونها، إنهم يحسدونها... لقد كان مجرد التفكير في أمر من كان يتجاهلها بالأمس وأصبح يحسدها اليوم يشعرها بالمتعة... كانت تلك فكرة يشبه طعمها طعم الانتقام... انتقام خططت له بصمت طيلة سنوات تماما كما تم اضطهادها بصمت طيلة سنوات...

والآن « سمراء » ألقرية تعيش في أوروبا، في بلاد الحسناوات : صوفيا لورين، ماريا غراتسيا كوتشينوتا،

مليسا ساتا، إليزابيتا كناليس... حسناوات لم يكنّ في الواقع سوى سمراوات... هكذا فكرت. كان هذا أمرا يبدو غريبا بالنسبة لها، لكنه لم يكن غريبا في أوروبا حيث تعد سمرة البشرة فيها مثيرة لأنها كانت غريبة. وفي بلاد ترتفع فيها نسبة الشقراوات اللواتي لم يكن من الممكن إقصاؤهن من معادلة الجمال، كان يسمح للشقراء اكتساب لون السمرة بأي طريقة حتى تدخل بذلك في عداد الفتيات المثيرات، وكذلك كانت تفعل الفتيات ذوات الشعر الغامق والبشرة الفاتحة... كان الكل مهووسا بالشمس في تلك البلاد هوسه بكرة القدم وبالموضة... لقد كان الجميع يسمّر نفسه... لقد كان ذلك هو عصر موضة الشمس، ولم يكن يسمح للمرأة هناك أن تكون باهتة اللون... كان يتعين لكل فتاة تريد الحصول على لقب جميلة في تلك البقعة من الأرض أن تحصل على لون السمرة بأي شكل من الأشكال...

****

لقد كانت الكريمات وأحدث التقنيات تسمح للجميع بالحصول على لون السمرة الطبيعي... لكن ذلك لم يكن كافيا ليشعرها فعلا بحرارة الشمس هناك، إلا أنه لم يكن

يشعرها بالوحدة أو بالحنين إلى بلدتها. لقد كانت سعيدة حيث هي الآن. ها هي تدرس وتفكر في العمل والاستقرار فى هذا البلد بعد الانتهاء من دراستها. كان من المفترض أن تدرس الطب حتى تعود لوطنها وتساعد فيه من يحتاج إلى مساعدتها. لكنها لم تكن تشعر بالرغبة في العودة إلى بلدها. إنها ببساطة سعيدة في وطن جمالها. صحيح أنها تعرقلت في الدراسة، ولم تحافظ على مرتبة المتفوقة التي كانت تتمتع بها هناك، وها هي تغير اختصاصها، لكن تلك لم تكن خطوة قاسية بالنسبة لها، إنها لا تود ببساطة العودة... فليمت من يمت وليحيا من يحيا هناك، فهي تود أن تعيش بقية حياتها هنا... أن تحيا جمالها هنا. وبالرغم من فقدانها للّقب الذي كان يعزّيها طيلة سنوات حياتها في قريتها والذي أهّلها للهرب من موطن حزنها، إلا أنها كانت سعيدة هنا... بل كان يبدو حتى أنها في غاية السعادة لفقدانها لذلك اللقب بالتحديد... ربما لأنها كانت تعلم ما تحمله دلالة حمله هناك... أو ربما لأنها تعلم جيدا دلالة فقدانه هنا... لا يهم... لكنها كانت سعيدة... سعيدة جدا لفقدانها لقب الذكية... ولأنه لقب فقدته بصمت، انتابها الشعور بالسعادة لأجل فقدانه

بصمت أيضا... ولأن قانون الصمت كان هو ما يبدو وكأنه يتحكم بمجريات حياتها... كانت تشعر بسعادة صامتة غريبة تنتابها كلما شاهدت تلك النظرات التي كانت تبوح لها بصمت بما يفترض أنه أقسى من فقدانها للقب الذي حازت عليه بجدارة واستحقاق في موطنها... نظرات تقول أنها غبية... لكنها كانت سعيدة، سعيدة لأن الوصف المعلن الذى كانت تسمعه من ورائه هو أنها جميلة... وجميلة جدا.

لم تكن تصدق أنها ستعيش اليوم الذي تسمع فيه هذا الوصف يعزى لها... ولا يهم إن أتى محمّلا بمعنى صامت يعني أنها غبية أم لا... نعم فقد كان الغباء هو ذلك المعنى الصامت الذي تحمله كلمة جميلة في طياتها في مكان يقال إن صفة الذكاء فيه ميزة يفترض أن الرجل والمرأة متساويان في التمتع بها... لكن ولسبب من الأسباب... ما تخفيه الدلالات ليس هو دوما ما تشي به المدلولات...

وهكذا أصبحت السمراء، القبيحة بصمت في مكان ما، جميلة، ولكن غبية بصمت في مكان آخر... لم تكن

تأمل ولا بالأحلام أن تنقلب موازين القوى بهذا الشكل لصالحها... أخيرا حققت حلمها الذي لم تكن تتجرأ على مجرد التفكير فيه وهي هناك... جميلة ! إنها جميلة ! لقد أصبحت جميلة في نظرهم... ولكنها الآن وبعد فشلها في دراسة الطب لتكتفي بدبلوم المدلّكة، لم يبق أمامها مبرر للبقاء هناك، لابد أن تعود إلى وطنها... لكن ذلك كان يعني العودة إلى قبحها...

لا... لن تسمح بذلك...

****

والآن قررت تعاطي السياسة... ستدافع سمراء القرية عن قضية وطنها... إنها قضية على الموضة في جميع الأحوال. وهي في بلد الموضة، ولابد أن تتبع الموضة حتى تبقى جميلة... سمراء وعلى الموضة، هذه هي معادلة الجمال الحقيقية هنا. لم يكن من الصعب على أي حال تحقيق أي حلم من أحلامها وهي محاطة بكل أولئك المعجبين. علاقة واحدة كيف ما اتفق مع أي كان تكفي... وتسعة أشهر من التضحية تضمن بقاءها هنا مدى حياتها لا تعد بالأصل تضحية... وعلاقتان أو ثلاث أو أربع... مع من يمكن أن

يحولها إلى نجمة لن تضيرها، بل ستكون بالعكس لحظات مميزة تستمتع فيها بجمالها. نعم إنها هي... هي سمراء القرية التي لم يكن يتكرم عليها أحد من شباب بلدتها الفقيرة البائسة بنظرة واحدة، لها الآن صولات وجولات مع أقوى وأغنى رجال الضفة الأخرى الذين يتهافتون على الخروج معها.

وها هي الآن في التلفزيون تقف أمام رجال السياسة وتصرخ في وجههم لأنهم لا يساعدون شباب وطنها... الشباب الذين سيبقون يحسدونها... لأنها لا تزال هنا. بينما هم لا يزالون هناك. إنها الآن تصرخ في وجه المسؤولين هنا لمساعدة وطنها بينما هم غير قادرين حتى على الكلام ليطالبوا مسؤوليهم بالكف عن تخريب وطنهم وتفل المزيد من القذارة فيه هناك. إنها تشعر بالمتعة... إنها تنتقم لنفسها من سنوات الاضطهاد الطويلة هناك...

أنا سمراء... ولكنني هنا... وأنتم لا تزالون هناك. أنا سمراء لكنني أتكلم هنا، بينما أنتم صامتون هناك... أنا سمراء ولكنني أنجح منكم هنا... وأنتم لا تزالون فاشلين هناك... أنا سمراء ولكنني أستمتع بعطلتي على قوارب

الأثرياء هنا... بينما أنتم ترمون بأنفسكم في قوارب الموت هناك... قوارب وإن أوصلتكم بأي حال إلى هذه الضفة، فأنا من سيتلقفكم ليدافع عنكم وعن قضيتكم وعن هجرتكم... وستشعرون بالدونية أمامي هنا... تماما كما كنت أشعر بها أمامكم هناك... وستتفرجون عليّ كالشطار من خلال الشاشة بملابسي الغالية... والمكشوفة... والمبهرجة... وكل ما لم أستطع أن أرتديه عندكم هناك، وأنتم لا تزالون في أسمالكم البالية التي جلبتموها معكم تنتظرون ما يمكن أن يرشح عن كفاحي... ونضالي... وصراخي من أجل الدفاع عن قضيتنا هنا... بل قضيتي أنا هناك... قضية حياتي... معاناتي... مراهقتي... سمرتي... عقدتي... نعم من هنا سانتقم منكم وبكم أنتم... من هنا...

ولأنهم لم يتهموها يوما بالقبح علانية... لم تصرح بما تفعله انتقاما منهم علانية... كان قانون الصمت هو ما يحرك حياتها... ولا بد أن تبقي عليه محركا لحياتها... كانت تعلم أن معانيه والدلالات التي يحملها هي دائما الأقوى. لقد أهانوها طيلة سنوات هناك بصمت... واليوم

آن الأوان لها أن تهينهم بصمت هنا ولبقية حياتها...
نعم لقد آن الأوان لتحقيق انتقامها...

****

كان يجلس قبالتها، عاجزا عن الكلام. كيف تمكنت من الجلوس على هذا المقعد قبالتي هنا... ؟! هنا. فكر وهو ينظر إلى ساقيها العاريتين المدهونتين بكريم تلميع يبرز لونهما، وابتسم بمكر وكأنه فهم شيئا ما، ثم عاد ليتأمل منطقها العجيب وحججها الغريبة... لقد كانت تبدو وكأنها تقول له بكل كلمة تلفظها « فلتكن أشد ملكا من الملك »... لم يكن يصدق عدا عن غرابة هذا المنطق، بأنها تجرأت على الوقوف أمام رجل دولة بحجمه لتصرخ في وجهه بكل صفاقة وعدوانية. لم يكن يصدق أنها مفعمة بكل تلك الثقة... من أين أتت بكل تلك الجرأة... من أين أتت بكل تلك الشراسة ؟ لم يكن يفهم ذلك... لم يكن من أبناء قريتها يدرك بأن « السمراء » جبارة تماما مثل كل ذي عاهة !... كان اوروبيا لم يفهم كيف وقفت امامه امراة حسيلة تؤنبه على عدم القيام بأشياء لا يقوم بها من هم بحاجة إليها أصلا... كان أوروبيا، وكان الجميع أوروبيون

من حولها... كانت تسمع هنا وهناك هتافات تخرج من حين إلى حين... « زلابية لكنك غبية »... كلمات كانت تشعرها بالثقة وهي تسمعها... كان هذا يشعرها بلذة صامتة من نوع ما... ويشعره هو أيضا بذات اللذة، لقد كانوا يقولون ما كان يرغب في التصريح به لها : « أنت لست إلا زلابية غبية » غير أن لياقته السياسية منعته من قولها... إلا أن ذلك كله كان يزيد من لعلعة صوتها... وعرض ابتسامتها...

والآن طفح الكيل، ولم يعد يتحملها... لكنه لم يكن غبيا ليشتمها علنا ويقول لها ما كان حقا مؤمنا به : غبية... غبية... إنها غبية... لابد أن يصرح لها بذلك بأي شكل... وفي لحظة غضب شديدة انطلقت الكلمة من فمه كرصاصة الرحمة على رأسها وهي تقاطعه في كل كلمة له يقولها :

« سيدتي السمراء اسمحي لي بالكلام... »

... وفجأة أعادتها تلك الكلمة إلى وطنها، قريتها، مدرستها، وشباب حيها : إلى قبحها. لم تصدق أذنيها... هذا غير ممكن !... كيف يجرؤ على إعادتي إلى هناك...

كيف يجرؤ على هذا... كيفٍ يجرؤ أن يكون مثلهم... لم تكن تستطيع أن تصرح له بذلك... إنها هنا... إنها تدافع الآن عنهم... ولكنها ترغب في أن تشتمه وتشتمهم... كان لابد لها من التعبير عن بغضها له ولهم بأي شكل... إنه يريد بهذه الكلمة أن يطردها من مملكة جمالها ليعيدها إلى موطن بشاعتها... « عنصري »... « عنصري » ... تماما مثلهم... إنك مثلهم... مثلهم... مثلهم... هم الذين انتقمت منهم بك... لكنك تنتقم مني بهم... عنصري... عنصري... لكنه لم يكن يقصد بكلمته تلك سوى أن يقول لها أنها جميلة... سوى أن يقول أنها غبية !... لكنها لم تكن تقصد بكلمتها تلك سوى أن تقول له أنه مثلهم... تماما مثلهم !... لم تفهم قصده... لم يفهم قصدها... كانت كل المعاني من حولهما صامتة... كانت صامتة...

ثورتهـ « ن »

« ... تابعات... وديعات... مطيعات... هكذا يريدوننا ؟ لا يهمنا... فنحن نريد أنفسنا قويات... واثقات... متحديات... نعم، هكذا نريد أنفسنا... وسنكون كما نريد نحن أن نكون، لا كما يريدوننا هم أن نكون... قلن لهم بأعلى صوتكن أنكن أنتن مالكات قراراتكن... أنتن مالكات أنفسكن... أنتن ولا أحد غيركن... ».

اهتزت القاعة بعاصفة من التصفيق الهستيري المحسوم، وانطلقت أعاصير من الهتافات الحماسية التي لم يكن شيء ليوقفها سوى حشرجة خافتة على الميكروفون من صوتها، تنذر باستئنافها لكلمتها...

« يريدون التمييز بيننا... لا !... يريدون اللامساواة... لا !... يريدون السراويل لهم والتنانير لنا... لا !...

يريدون إقصاءنا من معادلة البشرية... لا ! لا ! وألف لا !... قلن لهم بأعلى صوتكن أنكن أنتن مالكات قراراتكن... أنتن مالكات أنفسكن... أنتن ولا أحد غيركن... ».

وماجت القاعة وهاجت مجددا على وقع هذه الكلمات. كانت كلماتها النارية وخطاباتها الثورية تبدو وكأنها تسلبهن عقولهن. كانت تهزّ كيانهن. إنها نبضهن. لقد سئمن من الكينونة تحت إمرتهم. وتنفيذ طلباتهم. وإشباع نزواتهم. لقد قررن أن يكنّ ما يردن هن أن يكنّ عليه... وليس ما يريدون هم لهنّ أن يصبحن عليه...

****

أخواتكن هناك اتّحدن جميعا لمساعدتكن في تحقيق ثورتكن... فلتكنّ أكيدات أننا سنؤازركن، وندعمكن... ونبقى معكنّ حتى النهاية لتتخلصن من...

– ثقيلة، ثقيلة جدا. قال وهو يدعوها لتعديل هذه الجملة في الخطاب الذي ستلقيه يوم غد...

سطرت الجملة حتى تعيد صياغتها لاحقا وتابعت قراءة الخطبة عليه. كان ذلك هو المدير الإقليمي لمجلس قيادة

الثورة النسوية العالمية، التي كانت ستلقي كلمتها في اليوم الموالي في إقليمه. كان على الرغم من كونه رجلا، من اشد المناصرين لـ « قضيتهن » بل واول الداعين لقيام الثورة النسويّة العالمية وأهم واضعي خطوطها التوجيهية.

« إن معاناتكن هنا لا تغيب لحظة عن أذهانهن هناك، في السبيل إلى تحقيق ثورتكن... هنّ لا يتوقفن عن التفكير فى طريقة لمساعدتكن... ».

– لا، لا... هذه الجملة تبدو أثقل وأثقل... غيّريها، غيّريها...

بدأت تشعر بالتوتر وهي تضع مجددا سطرا تحت هذه الجملة لإعادة صياغتها. كانت كل جملة تقرأها عليه يؤكد لها أنها أثقل من سابقتها. لقد كانت خطيبة مفوهة عادة ما تكون كلماتها أسلس وأخف على الآذان مما يبدو في جملها الآن. ما الذي يحصل معها ؟ هذه الكلمة في غاية الأهمية بالنسبة لها. إنها الكلمة التي ستلقيها غدا أمام أشد النساء اضطهادا في الكون. لا بد لذلك التجمع أن ينجح. إنها تعرف أن ثمة الكثير من الرجال ممن يتآمر عليها لإفشال هذا التجمع، لكنها تعمل كل ما في وسعها

مع ذلك لإنجاحه بدعم من المدير الإقليمي لمجلس قيادة الثورة هنا... ولكن ما الذي يحصل لها الآن ؟ لماذا تبدو وكأنها لم تعد تتحكم في إيقاع جملها... ورنين كلماتها ؟ كان هذا ما يؤكده لها...

– ربما هناك مشكلة ما لديك في اللغة ؟ قال وهو يشعل دخان سيجارته...

– لا... لا. قالت محاولة طرد هذه الفكرة الشنيعة من رأسه. اللغة غالبا ما تدعمني، أنا خطيبة الحركة المفوهة هل نسيت ؟

لكنني لا أرى أن اللغة اليوم معك... كلماتك تبدو ثقيلة جدا على أذني...

– لا... لا، اللغة دوما في صفي... قالت وهي تشجّع نفسها. لا يمكن للغة أن تخذلني... إنها من بني جنسي !

وعادت لوضع خط تحت الجملة التي لم تعجبه وهي تشعر بالتوتر. لم يحصل هذا يوما معها قط. لم يوجه لها أحد من قبل ملاحظة على طبيعة اللغة التي تستخدمها في خطبها. كانت عادة ما تمر على قيادات الثورة حتى

..افش مضمون الكلمة لا لغتها، وهو الأمر الذي أربكها اليوم نوعا ما...

« أيتها النساء المقهورات، لا يعني أمر تمكننا من الحصول على حريتنا هناك، أننا نسينا بني جنسنا هنا... »

هذا يبدو أفضل... قال وهو يدعوها للمتابعة...

« ... أنا هنا من أجل أن أؤكد لكنّ أننا دوما معكن... لن ننسى قضيتكن... ونحن نقوم بكل ما في وسعنا من أجل دعم ثورتكن... »

- لا... لا ! وعاد ليؤكد لها وجود خلل في الكلمة. ثمة خطب ما في اللغة... نعم أنا أكيد أن المشكلة في اللغة.

- ولكن مشكلة من أي نوع ؟ أنا لا أفهم قصدك...

- لا أعرف أشعر أن هناك شيئا ثقيلا على أذني...

رنين من نوع ما يزعجني...

... وفجأة شعرت بأنها التقطت ذلك الشيء الذي يتحدث عنه... يبدو أنها وجدته... نعم وجدته... كيف لم يخطر على بالها من قبل.

– إنه رنين النون... رنين نون النسوة ! كيف لم يخطر ذلك على بالي... لكن هل هي مزعجة إلى هذا الحد ؟

– ماذا ؟ نون النسوة ؟ قال باضطراب... هل وصل بها التمييز إلى هذا الحد ؟ ما الذي تفعله هاته النون الثقيلة في الأفعال المصرفة للمرأة في هذه اللغة ؟ لماذا تقحم في كل فعل موجه لها ؟... لماذا هذا التمييز بين الأفعال المصرفة مع الضمائر المذكرة ونظيرتها المؤنثة ؟ لماذا ؟

– نعم معك حق ! قالت وهي تشعر بالصدمة.

– اللغة المسكينة تعاني الاضطهاد، وهي لم تكتشف هذا الأمر سابقا. كيف لم تلحظ معاناتها هي الأخرى، كيف ؟ لابد من أن تفعل شيئا ما لنصرة لغتها مثلما تفعل كل ما في وسعها لنصرة بني جنسها. لابد من ذلك !

****

« أيتها النساء المقهورات، لا يعني أمر تمكننا من الحصول على حريتنا هناك، أننا نسينا بني جنسنا هنا... أخواتكم هناك قد اتحدوا جميعا لمساعدتكم في تحقيق ثورتكم... تأكدوا أننا سنؤازركم، وندعمكم... ونبقى معكم حتى النهاية لتتخلصوا من كل أشكال القمع

التي تمارس ضدكم... إن معاناتكم هنا لا تغيب لحظة من أذهانهم هناك، وفي سبيل تحقيق ثورتكم... هم لا يتوقفون عن التفكير في طريقة لمساعدتكم... وإيصال كلمتكم... أنا هنا من أجل أن أؤكد لكم أننا دوما معكم... لن ننسى قضيتكم... ونحن نقوم بكل ما في وسعنا من أجل دعم ثورتكم... »

– نعم، هذا أفضل... أفضل بكثير. قال وهو يهز رأسه برضا. وتابعت هي مرتجلة بزهو :

« ... وحتى تتأكدوا من أهميتكم بالنسبة لنا، ودوركم المحوري في نضالنا قررنا إعلان الثورة النسويّة الثانية من هنا... من عندكم... أردناها ثورة على اللامساواة الكامنة في اللغة والتي تصر على تكريس التمييز بيننا وبينهم... لماذا هم يأخذون ميما خفيفة على الآذان... ويعطوننا نونا ثقيلة على اللسان ؟... من هنا أعلن أخواتي إسقاط نون النسوة البائسة من اللغة العربية وها أنا ألقي عليكم كلمتي من دونها...

– لا، لا... قال مقاطعا وقد هاله وقع الجمل الأخيرة. فكرة القيام بثورة على اللغة فكرة غاية في الأهمية،

لكن ليس من هنا... وواصل باضطراب : ستكون مثل هذه الأفكار قوية جدا على النساء هنا... لن يهضموها. فعدا أنهم سيجدون أصلا صعوبة في تقبل فكرة ثورتنا من أساسه... لا أجد أن هناك داعيا لنطرح فكرة ثورتنا الثانية عليهم بهذا الشكل الفج والمباشر، قبل أن يستوعبوا ثورتنا الأولى أصلا...

– إذن ما الحل ؟ قالت بخيبة امل... انا لا يمكنني ان أعود لاستخدام تلك النون في خطبي بعد أن اكتشفت ما تحمله من معان تمييزية رهيبة...

– لا، لا طبعا... لن أطلب منك ذلك ! قال وهو يشعل سيجارته الثانية، وقد عاد إلى هدوئه...

– إذن ما عسانا فعله ؟

– سنقوم بإلغاء المقطع الذي تدعين فيه بالقيام بثورة على اللغة ونستبدله بالقيام بخطوات عملية على الأرض فى هذا الصدد. قال وهو يأخذ أول نفس من سيجارته.

– خطوات عملية ؟ كيف ؟

ستستخدمين في خطبتك غدا « لِولونغاج ». قال هو ينفث دخان سيجارته وواصل : ... وبذلك سنسقط التفرقة الموجودة في اللغة أوتوماتيكيا...

ماذا ؟ ما الذي تقوله ؟ قالت مقاطعة بشيء من العنف.

- تستخدمين « لولونغاج »... يعني... يعني... قال مرتبكا وهو يحاول ترجمة اللفظ الفرنسي الذي استخدمه إلى العربية... أقصد الكلام العادي الذي نتحدث به... الكلام اليومي المتداول...

وجهت إليه نظرات ملغزة، وبدا عليها وكأنها لم تفهم قصده، ولا هو فهم قصدها.

- أقصد ذلك الكلام الذي ليس هو باللغة الفصحى ولكن... تابع محاولا الشرح وهو يشعر بالارتباك...

- نعم، نعم أفهمك. قالت وكأنها عادت إلى وعيها... أنت تقصد أن أتكلم بالعامية... أي باللهجة المحلية...

- نعم... تماما... تماما... لقد فهمتني إذن !

– نعم... نعم... فهمتك... لكنني أستغرب قليلا استخدامك لهذه الكلمة باللغة الفرنسية، مع أنها لفظ مذكر... قالت وهي تنظر إليه بشيء من الريبة.

وقد كان جميع المناضلين في حركة الثورة النسوية العالمية يميلون لإسقاط الألفاظ المذكرة من كلامهم، ويبحثون لهم دوما في اللغة عن المرادفات المؤنثة لكل ما يجدونه من كلمات مذكرة تعترضهم، وذلك حتى يخففوا من السطوة الذكورية على الكلام لينسحب ذلك على الحياة بشكل عام.

– لا، لا. أنا لم أقصد شيئا من ذلك ! قال وقد ظهر عليه الارتباك. انا لم اكن مركزا فقط... هذا كل شيء. تابع وقد بدا عليه الكثير من الاضطراب... ولكنّني بصراحة أحبذ استخدام اللغة العامية على ما تحتويه من كلمات أجنبية لأنها تساعد على محو أغلب الفروق بين الجنسين... قال وهو ينفض بعصبية رماد سيجارته... فاللغة الفصحى كما اكتشفت بنفسك تكرّس التمييز بين المرأة والرجل بواسطة نون اللامساواة تلك وما شابه...

– نعم... طبعا ! قالت وقد عاد إليها الاطمئنان وهي تفكر بجدية في الفكرة. في العامية لا وجود لذلك التمييز الفج بين الجنسين، والأهم من ذلك أن نون التمييز السقيمة تلك تسقط من الأفعال المصرفة مع الضمير المؤنث... معك حق ! قالت بصوت عميق وهي تفكر بكلمتها التي ستلقيها غدا... بالعامية...

نظر إليها نظرة احتفائية، مط شفته العليا بابتسامة غريبة، ونفث دخانا كثيفا من سيجارته الثخينة...

****

كنّ يخرجن من القاعة الواحدة تلو الأخرى، وهن يرمقنها بنظرات خيبة صامتة.كنّ صامتات، باردات، غير متفاعلات. كانت ترى ردود أفعال جعلتها تشعر بأنها تلقي أسوأ كلمة في حياتها. كنّ يتوقعن خطبة قوية... خطبة رنانة. لكن ربما لم يكن رنين خطبها الذي سمعن عنه قبل مجيئها سوى إشاعة ! اصبن بخيبة امل على الرغم من أنها قالت كل شيء تعودت على قوله وأكثر، لكنها لم تأثر فيهن... لماذا ؟!

– ... لماذا لا يعجبهن كلامي... لماذا يخرجن ؟

كان هناك شيء ما ينقص كلماتها... كان هناك رنين ما ضائع في جملها... لم تفهم العلة في ذلك... لقد كانت يائسة... أصيبت بأكبر خيبات حياتها. كان ذلك التجمع مهمّا... مهمّا جدا بالنسبة لها، نظرت إليهن وهن يخرجن وفكرت بالمدير الإقليمي لمجلس قيادة الثورة... لا بد أنه كان محقا...

النساء المسكينات هنا ! ليس بوسعهن تقبل كلامي... مازلن يرزحن تحت سيطرة الرجل... لا يردن مجرد سماع حديث فيه ثورة عليه...

أما هو فكان يجلس هناك... من بعيد... يراقب المشهد دون تعليق... أخذ آخر نفس من سيجارته... كانت نظراته خاوية من أي معنى... أخرج علبة السجائر من جيبه ونظر بداخلها... لم تكن تعابير وجهه تنم عن أي شيء... ألقى بعقب سيجارته، ثم أعاد العلبة إلى جيبه دون أن يسحب اية سيجارة منها... يبدو وكانه لم يكن يشعر برغبة في إشعال سيجارة أخرى في تلك اللحظة... وقف وهو يطأ على عقب السيجارة التي

رماها... دعس عليها بلطف بقدمه.. لم يكن بحاجة إلى الضغط أكثر حتى تتفتت كليا في لحظتها... لقد قضى عليها تماما... لم يكلّف نفسه عناء إلقاء آخر نظرة إليها... نظر بلا مبالاة إلى جموع النسوة الخارجة... لا بأس... (فكّر).

لاتزال علبته ممتلئة...

أحلام بلهاء

وقفت فاغرة الفاه أمام الواجهة الزجاجية للمحل تتأمل للمرة الثالثة تشكيلة الأحذية تلك وهي منبهرة بتعدد تصاميمها وتنوع أشكالها. وبينما هي شاردة هذه المرة، في حذاء فضي لفالنتينو مرصع بحبات خرز زرقاء شفافة فكرت أنها تلائم تماما عقد التوباز الذي اشترته بالأمس، أو قبل أمس... استوقفها فجأة زوج أحذية آخر بدا وكأنه قد ذكّرها بشيء ما، كان حذاءً أصفر لّماعا بكعب أسود ثخين، يتدلى من وجهه ذي الذقن الدائري المحفور الذي كان يتوسطه مشبك فضّي ضخم، حجران شفافان كبيران. أخذت تتأمل الحذاء لبرهة، محاولة استحضار تفاصيل الصورة المخزّنة في ذاكرتها والذي استحث وجه ذلك الحذاء جزءا منها، وسرعان ما أطلقت تنهيدة عميقة وصاحت في قلبها...

– نعم... إنه حذاء هيفاء !

نظرت إلى الأكياس التي كانت في يدها للحظة نظرة المعتذر ثم اخذت نفسا عميقا ودخلت إلى المحل مجددا.

... حرام... يبدو وكأنه ينادي علي !

خرجت من المحل والسعادة تغمر قلبها وعلامات النصر تكلل قسمات وجهها... ولكن سرعان ما تشنجت ملامحها، وهدأت دقات قلبها، وبدا لمن كان يتابع تحركاتها للحظات وكأن نصرها انقلب خسارة، أو استحال لسبب ما إلى هزيمة نكراء... لكن لا ! لم يكن ذلك، في الواقع، سوى الشعور الذي يفترض أنه يلي النصر مباشرة... شعور الحاجة إلى تحقيق النصر الكامل الذي يستولي على المتمرسين في التسوق في كل مرة يمرون فيها أمام الواجهة الزجاجية لذات المحل الذي حققوا فيه انتصاراتهم المظفرة والتي عادة ما تتم في نفس اليوم.

– أطماعك التوسعية هذه خففيها... !

قالت مؤنبة نفسها وهي تحاول ان تضغط على جوارحها لكيلا تنظر إلى الواجهة الزجاجية مجددا وتلمح زوج أحذية آخر تشعر بأنه ينادي عليها فتضطر لحمله معها هو الآخر

على الرغم من أنها قد تجاوزت قدرتها على الحمل بكثير منذ ساعات بعد شرائها لحقيبة كلوي الذهبية المناسبة لفستان فرزاتشي الأزرق.

وقفت لبرهة أمام الواجهة الزجاجية، وهي مطرقة بصرها إلى الأرض وبدا للحظات وكأنها تمارس رياضة فكرية من نوع ما :

– هيا... هيا... تشجعي... أنت لا يمكنك أن تحملي أكثر...

لكنها لم تكن بذلك الغباء لتقنع عقلها الباطن بهذه الحجة ! كانت تعلم أنها تستطيع أن تذهب للسيارة التي تنتظرها بأناة في موقف السيارات الخاص بالمجمع التجاري، وتضع أغراضها داخلها ثم تعود مجددا لتستأنف نشاطها. حاولت أن تخرج لنفسها بعذر أذكى وفكرت :

– لكنك اشتريت اليوم كل ما تحتاجينه من أحذية... حذاء بولغاري البني ليناسب سترة شانيل الخضراء... حذاء لوبوتان المفتوح ذي الكعب الأحمر البرّاق لانتعاله مع فستان ديور الساتين، زوج الأحذية الفضي ذي الخرزات الزرقاء المناسبة لعقد التوباز... حذاء هيفاء لأنني لا أقل عنها أهمية... و...

وفجأة تذكرت أساور موريلاتو الخشبية التي اشترتها صباحا هي الأخرى... ربّاه ! ... لا بد لها من زوج أحذية ذي كعب خشبي في الحال قد تكون من ماركة فيراغامو حتى تلبسها مع تنورة الدولتشي القصيرة... وسرعان ما ذكّرتها تنورة الدولتشي القصيرة ببنطال غاليانو الذي اشترت له حقيبة برادا التي اكتشفت الأسبوع الماضي أن حذاء تستوني الذي فكرت بانتعاله معها قد بطلت موضته من ثلاثة أشهر تقريبا... هذا عدا حذاء آرا الأسود الذي لم يعد بإمكانها انتعاله مجددا لأنها قد استهلكته في مناسبتين أو ربما ثلاث مناسبات... وفجأة شعرت أن كل شيء يخرج عن سيطرتها وبأن العالم كله ينهار من أمامها... وعلى نحو ما لم يكن من الممكن الفكاك منه، فقدت قدرتها على ضبط نفسها أمام هول كل ما تذكرته، والتفتت نحو الواجهة الزجاجية مجددا لتقع عيناها وللمرة الثانية على حذاء هيفاء... بقيت تنظر إليه للحظات بإعجاب وهي تفكر بأنه الآن معها، فهيفاء ليست أفضل منها... ابتسمت للفكرة... وما إن همت في البحث عن زوج أحذية يناسب أساورها... وآخر يلائم حقيبتها... حتى انتبهت أنها لم تحدد بعد ماذا سترتدي مع حذائها الأصفر

الجديد... حذاء الفيديو كليب ؟ فكرت للحظة، ولسبب من الأسباب فكرت بأنه لابد لها من طلاء أظافر وردي... وظل جفون أزرق مخضر... وفستان ضيق مقلم بالأبيض والأسود... وبعض الأكسسوارات... ربما أقراط كبيرة... وساعة ضخمة... ومشبك ملوّن... و... و... الكثير من الأشياء. شعرت للحظات بالاضطراب... حاولت تهدئة نفسها، أخذت نفسا عميقا وانطلقت :

– هيا بسرعة... تنقصك الكثير من الأشياء الأخرى وأنت لازلت تتسكعين في هذا الجناح...

****

استغلت فرصة تحول الإشارة إلى اللون الأحمر حتى تستريح قليلا من تعب يوم شاق قامت فيه بمهام التسوق الجسام التي لم يكن من الممكن ولا بأي شكل من الأشكال أن تكلف أحدا آخر بالقيام بها عنها، فالتسوق مهمة دقيقة جدا تستدعي ملكات وقدرات خاصة لا يتمتع بها أي شخص كان :

– لو لم أسيطر على نفسي اليوم... لكنت قد انهرت بمجرد التفكير بكل ما كان ينقصني من أغراض...

عليها ثلاثة عشر...

تنهدت ثم ارتسمت ابتسامة النصر مجددا على محيّاها...

– لكنني تمكنت من التحكم في الوضع...

أغمضت عينيها للحظة وأسندت رأسها إلى مقعد السيارة، وأخذت تفكر بالانجازات التي قامت بها وتتخيل ردّات فعل صديقاتها وجاراتها وقريباتها على ثيابها وأكسسواراتها الجديدة... وفجأة قطع عليها سلسلة أفكارها اللذيذة دقات نزقة على نافذة سيارتها.

كان ذلك طفلا بين السابعة والعاشرة من العمر لم يكن يبدو منه سوى القسم الأعلى من وجهه الأسمر الصغير إذ لم تكن قامته بالطول الذي يساعده لإظهار وجهه كاملا على نافذة السيارة الضخمة رباعية الدفع التي كان قد انتهى لتوه من مسح زجاجها. لم تنتبه لما فعله، ولكنها على الرغم من ذلك فتحت بسرعة محفظتها وناولته بعض النقود على الفور. لم يكن الطفل بحاجة أصلا لأن يمسح زجاج السيارة حتى يحصل على تلك النقود منها، كان يكفي أن ينادي عليها فقط... لقد كانت تجزل بالعطاء لكل من كان ينادي عليها فحسب !... دعست على مدوس البنزين، وانطلقت

مسرعة إلى المنزل وهي مزهوة بكل الأعمال الكريمة التي أقدمت على فعلها اليوم. لقد كانت تحب فكرة أنها كريمة، وكان زوجها يحب فيها ذلك ايضا على الرغم من انه لا يستخدم اللفظ الأكثر شيوعا لوصف كرمها.

بلهاء !

****

علقت في الاختناق المروري مجددا. ربما كان يجب عليها أن تتجنب هذا التوقيت، لكن لا... لم يكن من الممكن أن تختصر فترة التسوق... قلّبت عينيها في الشارع، وفجأة التقت عيناها بعيني طفل آخر كان يمسح زجاج سيارة أخرى... ربما كان هو نفسه الذى تصدّقت عليه بالنقود قبل قليل... أو ربما هذا كان أصغر بقليل... لا تعرف !... ربما !... جميعهم نحيفون... وسمر... وحفاة... ويمسحون زجاج السيارات... كلهم يشبهون بعضهم البعض... ولكن ذلك لم يكن يهمها... كانت لتعطيه المزيد من النقود لو أنه نادى عليها... كان وجهه يبدو تعيسا، لكنه لم يناد عليها... كانت تجزل بالعطاء لكل من كان ينادي عليها... كان يكفيه أن ينادي عليها فحسب... وفجأة

تذكرت كل الأحذية والفساتين والأكسسوارات التي نادت عليها بإلحاح اليوم في السوق... ديور... فرزاتشي... كلوي... فالنتينو... ميسوني... غابانا... كانت كلها تنادي عليها... وكان حذاء هيفاء الأكثر إصرارا عليها... وربما كانت معه حتما هي الأجزل في العطاء.

وصلت إلى المنزل متأخرة، لكنها لم تكن تبالي. كان لابد أن تتسوق اليوم مثل كل يوم، ولم يكن من الممكن ان تكلف احدا غيرها بهذه المهمة. وعلى اي حال كل شيء كان على ما يرام في المنزل. السائق أحضر الطفلة من المدرسة، والمربية غيرت للطفل وزوجها جالس يشاهد الأخبار... جلست إلى جانبه لتخبره عن الإنجازات التي حققتها لنهار اليوم، وكل الأعمال التي أقدمت عليها... كان هنالك الكثير من الأشياء في حصاد اليوم... سيسعد بها زوجها حتما...

- الأبله... يستحق ذلك...

حملقت فيه باستغراب... ونظرت إلى الشاشة لتعرف من ذا الذي احتل مكانها وجعل زوجها لا ينتبه لقدومها...

« ... وفي مزيد من ردود الأفعال حول تداعيات قذف الزيدي لحذائه على بوش... ».

– يا إلهي... صاحت وقد هالها ما سمعته.كيف أمكنه فعل ذلك ؟...

قالت وعلامة الصدمة مرتسمة على وجهها :

– كيف تمكن من رمي حذائه ؟

بلعت ريقها وقد تخيلت نفسها تقذف بأحذيتها هي الأخرى على أحد الوجوه...

لا !... وقذفت الفكرة مباشرة من دماغها... هي لا تستطيع قذف أحذيتها... إنها لا تستطيع رمي أي زوج من أحذيتها...

فكرت وهي تشد بحركة غريزية على الأكياس التي تحمل كل أحذيتها... لا، مستحيل !

ونظرت إلى الحذاء الأصفر بحنان خاص وفكرت... ليس لأنها أحذية غالية... لا... لست بخيلة... لا... أبدا... فكرت في حل لتلك الفكرة الفظيعة التي غزت دون إذن دماغها... ثم صاحت فجأة وقد بدا وكأنها وجدت حلا للمعضلة التي فرضت نفسها عليها في تلك الساعة...

– ... لكنني أستطيع أن أقذف في وجهه ما لم يحلم به حتى من مال...

نظر زوجها إليها بلا مبالاة وكالمعتاد لم يكن أمامه سوى كلمة واحدة ليقولها :

– بلهاء !

ابتسمت له بغنج ودارت وجهها. كانت « بلهاء » هي كلمة الغزل المفضلة لديها. كان يقولها لها كل يوم، ومع ذلك لم يبطل لحد الآن مفعولها معها... لقد كانت تلك كلمة عزيزة على قلبها ليس لأنها كانت تعتز بكونها بلهاء فحسب... ولكن الأهم من ذلك لأن اللفظة كانت على وزن هيفاء... فكرت بعمق وهي تنظر بزهو إلى ذلك الحذاء...

وفجأة قطع رنين هاتفها النقال أفكارها.

– جا الشيخ !

– الشيخ ؟؟؟ انتفضت من مكانها متسائلة بنبرة احتفائية.

– الشيخ بورويس... غاولي... واش بيكي ؟؟؟

– آآآآه...

أغلقت الهاتف بخيبة أمل وعادت تلك الأغنية التي كانت تصدح في أذنيها منذ الصباح من خلال السماعات التي كانت تخفيها تحت خمارها... « بحبك وحبك

جوايا... وفيني وفينك... ». أعادت المجلد الثاني للسان العرب إلى مكانه، وهي تفكر بما قرأته للتو : و« البلهاء » هي « المرأة شديدة الكرم »... تنهدت وهي تستعيد بطاقة المكتبة... دستها على عجل في نسخة لـ « زهرة الخليج » كانت تحتفظ بها في حقيبتها وصعدت السلالم مسرعة وهي تعدل غطاء رأسها بحركة غريزية. سحبت مرآة صغيرة من جيب حقيبتها لتتأكد من ثبات غرتها الجانبية على جبينها. تبا للدراسة، وللأساتذة وطلباتهم، ماذا أقول له ؟ تمتمت وهي تفكر في ما يمكن أن تجده من مبررات للأستاذ لعدم الانتهاء من البحث ؛ الحذاء، أم الكليبات، أم القنوات التلفزيونية، أم المجلات... أم انه ابن منظور... نعم إنه ببساطة ابن منظور. ابتسمت وهي تتذكر الكلمة التي أخذتها إلى كل تلك العوالم.

بلهاء... كم هو جميل أن تكون المرأة منا بلهاء...

ثم تنهدت وهي تدخل القاعة ولكن سرعان ما انغلقت أساريرها لدى قراءة العنوان على السبورة... « الخيال في الأدب الشعبي الجزائري » ...

– يا رب متى أتخلص من هذا المكان... تنهدت بأسى واستقرت على المقعد وسط زميلاتها.

آه كم ارغب في ذلك الحذاء.

وغرقت مجددا في ما يبدو وكأنه حلم تسوق آخر... ومركز تجاري آخر.

غانيات

تناولت حقيبتها واخذت تجمع اوراق المحاضرة، وهي تحدج بنصف عين الطلبة وهم ينصرفون من المدرج بعد انتهاء محاضرة اليوم عن الكورتيزون وآثاره. لم تكن محاضرة هينة الاستيعاب، وبدا من الواضح لها أن الطلبة يخرجون من القاعة مثلما دخلوا إليها قبل تسعين دقيقة، إلا أنها بدت غير آبهة بالأمر. كان من الواضح أنها لم تكن تشعر بالارتياح لسبب ما، أو أن هناك شيئا ما يشغل بالها أكثر من أن يستوعب الطلبة مادتها، ويسيطر على تفكيرها أكثر من أي شيء آخر.

– يستطيعون التعمق أكثر في الموضوع من خلال البحث في الكتب...

فكرت وهي تراقب الطالبات وهن يخرجن من القاعة بنظرات غيظ مكبوتة، بينما كنّ هنّ مستمتعات بالتمايل في ارتقاء السلالم، وكأنهن يعرضن أزياء لأرماني على مدرج الكولوسيو في أسبوع « الآلتا مودا ». نترت حقيبتها بشدة وانطلقت شاقة طريقها بسرعة إلى خارج المدرج وهي تتفادى باحترافية شديدة الارتطام مع أي من الطالبات فتضطر، لأسباب اللياقة الاجتماعية، أن تعتذر بأربعة أحرف فرنسية تلفظ عادة بسرعة في مقطعين خفيفين على اللسان طالما كانا أكثر ما يسمع داخل الحرم الجامعي، إلا أنها لم تكن مستعدة في ذلك اليوم لتوجيه أي كلمة إضافية للطلبة زيادة عما قالته في المحاضرة التى اقتصدت أصلا كثيرا فى إلقائها. لقد كانت غالبا ما تشعر بأنها تُشحّت العلم الذي جمعته لنفسها بسهر الليالي لمتسولين لا يستحقونه، ولذلك كانت لا تقدم في محاضراتها سوى الحد الأدنى من المعلومات للطلبة. لقد كانت تلك هي سياستها التي تبنتها منذ دخولها سلك التعليم، ولم تكن تنوي الحياد عنها.

وعلى الرغم من أن أستاذة الكيمياء الدوائية لم تكن تتمتع بشباب طالباتها إلا أنها كانت تبدو حتما أكثر

حذبا للأنظار منهن، ربما لأن مظهرها الجدي الفريد كان ملفتا أكثر من ميوعتهن المضغوطُة جدا في ذات المكان... أو ربما لأنها كانت توحي بالثقة أكثر منهن لكونها تحمل هيبة الأستاذية بينما هن لم يكنّ سوى طالبات غضات في حقلها... ولكن ما كان مؤكدا هو أن تعابير وجهها العسكرية وطريقة مشيتها الحازمة وهي تطرق بشدة بكعب حذائها على درجات السلم العريضة، وتقذف بقوة الساق بعد الساق لارتقاء تلك الدرجات، يجعل من الناظر إليها يشعر بأنها عارضة برازيلية تلتهم خطواتها منصة العرض التهاما وهي تعتمد مشية الفَرَس الشهيرة التي أدخلتها العارضات البرازيليات إلى منصات العروض، مغطية بذلك على مشية القطة الباهتة لطالباتها اللواتي بَدَوْنَ معها كعارضات أزياء أوروبيات مبتدئات في حضرة المعلمة اللاتينية المخضرمة.

نظرت إلى الساعة وهي تخرج من باب المدرّج، حتى تتأكد من انها ستكون على الموعد المحدد في « لاسيغال » مع صديقتها، ولم يفتها وهي تبرم للخروج من الباب الرئيسي للجامعة أن تتأكد من وجهة الطلبة المعتادة...

– يتجهون للهو في الحديقة الخلفية...

فكرت وهي تنظر خلسة إلى الطلبة، مبررة لنفسها تساهلها في شرح محاضرة اليوم على الرغم من ان طريق الحديقة الذي سلكه أغلب الطلبة هو نفسه الطريق المؤدي إلى المكتبة...

****

– لم أعد أستطيع تحملهن، ولا تحمل أشكالهن المقرفة. قالت وهي تخلع معطفها بنفاد صبر. أصبحت أتحامل على نفسي كثيرا وأنا ألقي عليهن المحاضرات... التافهات، لا يستحقن شيئا من العلم... قالت وهي تأخذ مكانها على الطاولة. يأتين كل يوم بملابس ضيقة ترسم أجسادهن، وتحدّد صدورهن وتظهر مؤخراتهن... مقرفات... مقرفات...

– هوني عليك. لا يستحق الأمر كل هذه النرفزة. أجابت من دون اهتمام واضح بالموضوع وهي ترتشف القهوة الساخنة.

– لا. قالت بعصبية. بل يستحق واكثر. اشعر وكانني أدرّس غا... إنهن فعلا أشبه بالغانـ... وابتلعت بقية الكلمة خجلا من التلفظ بها.

– تقصدين الغانيات. ضحكت ضحكة مكتومة مراعاة لوجودها في مكان عُام. لا بأس بهن إذن، فالغانيات هن النساء اللواتي يستغنين بجمالهن عن الزينة...

– أنت تفهمين ما أقصد. قالت وهي تلوّح بيدها بضجر. كما أن هذا ليس هو الوقت المناسب لإلقاء محاضرة في اللغة على...

– كنت أريد أن أروح عنك فقط. قالت بنبرة معتذرة. وعلى كل حال اللغة تخصصي... ومامن فضل علي في فهم معاني كلماتها أكثر منك، تماما كما أنك تعرفين أكثر مني حتما في أمور الأدوية والمواد الكيماوية...

نظرت إلى الساعة وأخذت تتلفت يمينا وشمالا مظهرة ضجرها بشكل أو بآخر من هذا الحديث. من الواضح أنها قد انزعجت من ردة الفعل الباردة التي تلقتها على حديثها...

– وعلى ذكر الزينة... قالت وهي تخرج شيئا ما من حقيبتها محاولة لفت انتباه صديقتها مجددا واسترضاءها بشكل ما. هل تعرفين ما هذا ؟

نظرت بشيء من اللامبالاة أولا، ثم أمعنت النظر في العلبة بعد أن لفتت نظرها الصورة الموجودة عليها، حدقت باندهاش وصاحت :

– كريم لـ...

وسارعت لوضع كفها على فمها حتى لا تلفت انتباه أحد إليها...

– أخفضي صوتك. قالت بصوت خافت. نعم إنه كريم لتكبير... قالت وهي تتلفت يمينا وشمالا. حصلت عليه من منتجات « أحلى البنات »... يقولون إنه كريم طبيعي.

نتشت الكريم من يدها وبقيت تتأمل العلبة للحظات طويلة وهي لا تصدق ما تراه عيناها... وفجأة وكمن يخشى أن يقبض عليه متلبسا بالجرم المشهود دست العلبة تحت معطفها وأخذت تتأكد من إخفاء الصورة الموجودة عليها.

وبمجرد رحيل النادل حتى سحبت العلبة مجددا من تحت المعطف وقلّبتها بين أناملها وكأنها تتفحص عقد ألماس، وبنبرة جدية قالت :

– هل جربته ؟

– طبعا. أجابت بفخر وهي تفرد صدرها بحركة غريزية.

– وهل شعرت بالفرق ؟ سألت ودقات قلبها تزداد تسارعا.

– بالتأكيد. أجابت بخيبة أمل ونبرة عتاب خفيفة تعلو صوتها. ألا يمكنك أن تري ذلك بنفسك ؟

وبحركة سريعة بعينيها ألقت نظرة خاطفة على صدرها ،رفعت رأسها على الفور حتى لا تلفت انتباه أحد إليها...

– نعم، نعم... معك حق. قالت وهي تبلع ريقها. وهل استغرقت رؤيتك للنتيجة فترة طويلة ؟

– طبعا لا، قالت بجدية. منتجات « أحلى البنات » معروفة بنتائجها السريعة... ستلاحظين النتيجة من المرة الأولى أو الثانية على أقصى تقدير...

– أريد أن أحصل على هذا المنتج. قالت وهي تشعر بحماس غير مألوف. هل يمكن أن تدليني على المحل ؟

– طبعا، اليوم آخذك بنفسي إذا لم تكن لديك محاضرة بعد الظهر... قالت وهي تتناول العلبة من يدها. وأنا

متأكدة أنك ستسعدين بالنتيجة، وستشكرينني بعد أيام قليلة فقط عليها. ودست الكريم في حقيبتها.

****

مرت بين طالباتها وهي لا تشعر اليوم بالغيظ المعتاد الذي طالما انتابها وهي تشق طريقها بينهن لتخرج من المدرج بأقصى سرعة. كانت تشعر لسبب ما أنها تود أن تزداد عدد درجات تلك السلالم حتى تستمتع بذلك الشعور الذي انتابها بينهن. إنها تشعر أنها مثلهن. نعم لم تكن تبدو مختلفة عنهن، حتى أن خطواتها أصبحت أقل وطأة وأقرب إلى خطوات القطة منها إلى خطوات الفرس... كانت مستمتعة لسبب ما، كانت تشعر باللذة وهي تحاكي خطواتهن الرشيقة التي خولت لها التسلل أيضا لأحاديثهن العابرة :

– ... قرأت أن العديد من النساء قد رفعن عليه دعوات قضائية، لكن لسبب ما هناك من يحاول التعتيم على هذه القضايا...

– لكن بصراحةً لا أتصور بأن المحاكم ستنصفهن... فالقانون لا يحمي المغفلين.

– معك حق فحتى أبسط إنسان يعرف أن المستحضرات التي تأتي بنتائج سحرية، لا بد أنها تحتوي على مادة الكورتيزون...

– ولكن برأيك ما مصلحة هذه المجلة لتكشف قضية من هذا النوع ؟

– ربما لتوعية النساء... وعلى أي حال هذه المجلة تهوى إثارة الفضائح... لقد كتبت الأسبوع الماضي عن فضيحة لـ...

وللحظة أحست أن الدنيا تلف بها... توقفت ودقات قلبها تزداد خفقانا... شعرت بالدوار... لم تكن قادرة على الاستمرار... لم تعد قادرة على محاكاة خطواتهن... ملأطأت رأسها وفكرت : « التافهات، بدل أن يذهبن لمراجعة الكتب، يقرأن مجلات الفضائح... وبحركة غريزية أخفت صدرها... « غانيات... تبًا لهن من غانيات... ».

قضية ديالكتيكية

صرخت في وجهها والدم يكاد ينبجس من عروقها :

– ألا ترين نفسك في المرآة ؟ ألا تلاحظين بأنك تبدين كالقصبة اليابسة ؟ ألا تملكين ولا ذرة إحساس واحدة ؟ ألا تدركين أنك إن استمريت كذلك لن يتزوجك أحد ؟ هل تريدينني أن أجبرك على الأكل ؟ قولى لى ؟ هل تريدينني أن أحشو الطعام في فمك كل يوم حشوا حتى تسمني قليلا، وأتوقف عن رؤية نظرات الشفقة لك من الناس ؟

– لكنني أنا لا أبالي بـ...

– اخرسى. قالت وهى تلهث بشدة وقد استحالت سمرة وجهها إلى اللون الخمري، وبدا مؤكدا أن ضغط دمها قد ارتفع إلى التسعة عشر. انصرفي عن وجهي الآن، لا أريد أن أراك أمامي. قالت وهي تتهاوى على الكرسي.

انصرفت إلى زاويتها وهي تشعر ببعض الضيق، على الرغم من أنها قد تعودت على سماع هذا الكلام من أمها مذ كانت تزال طفلة، لكن من الواضح أن والدتها قد كثفت كثيرا من جلسات التأنيب والزجر لها في الفترة الأخيرة لأمر لم تر يوما أنها كانت مذنبة بشأنه.

لم تكن الوالدة تشعر يوما بالرضا عن شكل ابنتها التي كانت نحيلة جدا نسبة إلى ما ينبغي للفتاة أن تكون عليه في تلك المنطقة. لقد كانت تأكل بشكل طبيعي إلا أن جسمها لم يمتلئ يوما ليصل إلى الوزن الذي يخوّلها لتصبح مرغوبة من رجال البلدة ومطلوبة للزواج كغيرها من الفتيات اللواتي قد بلغن سنها. إنها الآن في الثامنة عشر من العمر ولا يزال جسمها سوى جلد على عظم كما تقول أمها، وهو ما يقلص كثيرا من فرصتها في الحصول على زوج، إذ وبالرغم من أنها تعيش سن الذروة في حياة كل امرأة من أجل الحصول على زوج، لم تتمكن لحد الآن من لفت انتباه أحد إليها ليتقدم لخطبتها، وهو ما جعل الأم تقلق على مستقبل

ابنتها التي قد تبقى عانسا إذا ما بقي وزنها على ذلك الحال.

****

– لا أعرف !... لا أعرف يا أمي ما الذي بقي ولم أفعله مع هذه الفتاة. قالت منتحبة شاكية حال ابنتها. جننت وأنا أشرح لها ما الذي يعنيه بقاءها كحبل الغسيل لشدة نحولها، لكنها لا تتجاوب معي إطلاقا.

– أخشى أن تكون هذه الفتاة مسحورة ! قالت الجدة بنبرة جدية وهي ساهمة.

فكرت الأم للحظات، وقد ارتسمت علامات الخوف والقلق على وجهها :

– يا إلهي، مسحورة !... قالت وهي تبلع ريقها. لقد لاحظت عليها منذ أسابيع علامات غريبة على أي حال...

– وما الذي لاحظته ؟ سألت الجدة باهتمام.

– إنها تبدو وكأنها مهمومة طوال الوقت... لا تتكلم كثيرا ولا تجالس أقرانها سوى لماما... تارة تبتسم لوحدها من دون سبب وتارة أخرى يكفهر وجهها...

– لابد أن تأخذيها إلى...

وفي هذه اللحظات، سمع طرق على الباب. كانت هي. دخلت وكعادتها اتجهت مباشرة إلى زاويتها في المنزل، إلى أن نادت عليها جدتها.

****

– أنت تعلمين يا صغيرتي بأن الفتاة مآلها الأول والأخير بيت زوجها...

هزت رأسها وهي تستمع باهتمام.

– وتعلمين أيضا بأن الرجال يحبون المرأة الممتلئة...

نظرت إليها بترقب...

– وأنت إن بقي جسمك هكذا لن تتمكني يوما من لفت انتباه أحد والحصول على زوج... لقد رأيت ابنة جارتنا فطومة الأصغر منك بسنة كيف تزوجت منذ عام و...

وفي هذه اللحظات بدت جدتها وكأنها تتحدث إلى نفسها بينما هي انخرطت في التفكير في أمر آخر، وقد ظهرت عليها علامات الخيبة.

فرغت الجدة من كلامها. هزت رأسها بطاعة وانصرفت وهي لا تزال تفكر في الأمر...

– كانت تلك قضية منطقية فاسدة !

فكرت وهي تتجه إلى مكانها...

– لقد افترضت جدتي بقضية شرطية أن الفتاة مآلها الأول والأخير الوصول إلى بيت زوجها، وبما أنني فتاة لا تملك مقومات الحصول على زوج فلن أحصل إذن على مآلي الأول والأخير... كان هذا ما يجب أن تكون عليه نتيجة القضية السليمة !

فكرت وهي تبتسم للنتيجة، ولكن عادت تقاسيم وجهها للانغلاق ثانية، بينما أخذت جدتها تراقبها وهي تهز رأسها حزنا على حالها...

– ... لكن بهذا تصبح هذه القضية تحمل مغالطة منطقية ! تابعت تفكيرها. كان لابد لجدتي أن تبدأ القضية بمقدمة منطقية أسلم... ما الذي يعنيه أن أحصل على « مآلي الأول والأخير » ؟... كان عليها أن تقول « ستحصلين على مآلك الأخير » فحسب... فأنا حاصلة على مال أول في بيت والدي... فـ « ما هو موجود، موجود »، و « ما ليس موجودا هو ليس بموجود » ؛ ولو أنكرنا هاتين القضيتين لكان هناك « شيء آخر » ومادام

« لا يوجد إلا ما هو موجود » فقد ثبت فساد إنكار هاتين القضيتين، ولهذا لا يوجد « تغير »، إذ كل « تغير » يقتضي « غيرا »، ولا يوجد اي غير.

فكرت مستحضرة حصة الفلسفة للشهر الماضي، وهي تستذكر أفكار برمنيذس الإيلي. لقد كان درس « الديالكتيك » ذاك من أكثر الدروس التي تركت أثرا كبيرا في حياتها. لقد أصبح الديالكتيك منذ ذلك اليوم جزءا من تفكيرها... لا بل غدا أساس تفكيرها...

****

استلقت على الفراش وهي تفكر في كلام أمها وجدّتها معها لذلك اليوم :

– لابد أن جدتي كانت محقة... نعم !... لقد استخدمت لإقناعي حججا ديالكتيكية صرفة. فكرت وهي تستظهر أفلاطون في السوفيسطيقا :

« ... والحجج الديالكتيكية هي تلك التي تستند إلى مقدمات مُقر بها عامة »...

– مقدمة جدتي كانت سليمة إذن ! « الرجل مآل المرأة الأول والأخير » هذه مقدمة مقر بها عامة، وحجة

ديالكتيكية سليمة بحسبِ أفلاطون ولم يكن علي الاستخفاف بحِجاج جدتي اليوم على الإطلاق لهذا السبب. لقد كانت حججها منطقية وكلامها سليما. فإذا أردت أن أتزوج ينبغي علي ببساطة أن أحسّن شكلي.

تقلبت على الفراش وقد أجهدتها الفكرة، ثم أخذت تفكر في حالها وكلام أمها وجدّتها :

– لابد أن يزيد وزني !... فكرت وقد ظهرت على وجهها علامات القلق : هذا هو المعيار الذي ينبغي أن أتبعه. لابد أن يزيد وزني قليلا ليتحسن شكلي أكثر... لكن علي أن أقنعهما بأن الأمر يأتي بالتدريج. نعم هذا ما أعيشه إنه الديالكتيك الوجودي، وفي الديالكتيك الوجودي كل شيء يتحرك نحو المزيد من الأشكال المناسبة... هذا كل ما في الأمر... !

****

– الأمور معك تتحرك نحو المزيد من الأشكال المناسبة ؟ ما الذى تقولينه ؟ شكلك يزداد نحولا يوما بعد يوم وأنت تقولين لي أن الأمور تتحرك معك بالتدريج نحو الأفضل ؟

صرخت الأم وهي تشعر بالغيظ الشديد من كلام ابنتها، وقد شعرت لوهلة وكأنها تسخر منها.

– اسمعي يا بنت ! أنت لن تتمكني بهذا الكلام أن تقنعيني بعدم إخضاعك لدورة تسمين الأسبوع القادم... ستضطرين لتناول علف البقر شئت أم أبيت، ولن تردعيني عن فعل ذلك بكلامك هذا... كما أنك ستأتين معي قبل كل هذا لفك السحر الذى لا أعرف من وضعه لك...

خرجت من المنزل، متجهة إلى الثانوية، وهي تشعر بخيبة أمل شديدة. لقد كان تحليلها خاطئا...

– شكلي لا يتحرك بالتدريج نحو الأحسن... فوالدتي تقول أنني لا أنفك أنحف... ولكن إن لم يكن ما أعيشه ديالكتيكا وجوديّا فما الذي يمكن له أن يكون ؟ هل هو ديالكتيك تاريخي ؟ فكرت قليلا :

« والديالكتيك التاريخي يقوم على التنازع بين الغرض الذي يتم السعي إليه والواقع الفعلي... تنازع يقود حتما إلى تحطيم الواقع الفعلي وإحلال واقع آخر مكانه »

– لا، لا... ليس هذا ديالكتيكا تاريخيّا حتما ! طردت الفكرة مباشرة من عقلها. أنا لا أريد تحطيم واقعي

الفعلي... خالد يقول أن شكلي جيّد، وبأنني لست بحاجة لأن أسمن... وبما أن خالد رجل والرجل يحب المرأة السمينة إذن أنا أبدو بالنسبة له سمينة... ولكن أمي تقول بأنني لا أنفك أنحف... هناك حتما خلل ما في كل هذا الأمر... فكرت وقد بدأت تفقد أعصابها... خالد يقول بأن شكلي مناسب لكنه لا يأتي لخطبتي... وجدتي تقول بأن المرأة المناسبة يأتي الرجل مباشرة لخطبتها... فلماذا لا يأتي خالد إذن لخطبتي ؟

دخلت إلى صف الفلسفة وقد أعياها التفكير، وقد بدت مجهدة حتى قبل البدء في الدرس الذي لم تشعر بأي تفاعل معه اليوم.

– لابد أن والدتي معها حق. هناك شيء غريب ما في الأمر... إذا لم يتمكن الديالكيتك من حل أزمتي فلا بد أن يكون هناك أمر غامض يحصل معي... فإن لم أكن أعيش ديالكتيكا أنطولوجيّا ولا ديالكتيكا تاريخيّا إذن فأنا حتما مسحورة !... نعم، أنا حتما مسحورة... فكرت وهي تغلق الكتاب من أمامها... لابد أن أذهب مع والدتي لفك السحر غدا...

– نعم، لابد أن يكون هناك سحر ما... والدتي معها حق ! فكر خالد وهو يتجه إلى الكشك...

« لا يمكن أن تكون مهووسا بها لهذه الدرجة، على الرغم من أنها أنحف فتاة في القرية، هذه الفتاة قد سحرتك حتما... ».

فتح المجلة الأوروبية التي كان مدمنا على شرائها منذ مدة وهو يفكر فى كلمات أمه، مبررة رفضها لخطبة الفتاة التي أحبها له...

– لقد سحرتني حتما لتجعلني أعجب بها لهذا الحد... لقد سحرتني... لا يوجد تفسير آخر لما يحصل معي...

فكر وهو يقلب صفحات مجلته متأملا عارضات الأزياء النحيلات في ثياب البحر، وقد اقتنع تماما بالفكرة...

– نعم... لا يوجد تفسير آخر للأمر... !!

القناع

استلقت على الطاولة. أطبقت جفنيها وأخذت نفسا عميقا. كانت متحضّرة لساعة الحقيقة بشكل جيد، لم تكن تشعر بالرهبة التي كانت تنتاب معظم النساء وهن مقبلات على هذا النوع من العمليات، لقد اجتازت هذه المرحلة منذ سنوات، والآن تعودت على الأمر وأصبحت متمرسة. لم تكن تشعر حتى بالحماس الذي يصاحب التجربة ويجعل النساء يعشن دقائق ترقب وإثارة شديدين خلالها في انتظار الوصول إلى ساعة الحقيقة. أما هي فكان الشيء الوحيد الذي كانت تسعى إليه من خلالها هو أن تصبح « مها » اسما على مسمى.

لم تكن فهيمة التي اختارت لنفسها اسم مها لدى وصولها إلى ذلك البلد تحلم بتحقيق كل ما حققته لنفسها.

فعلى الرغم من أنها أتت لتعمل كمصففة شعر فحسب، إلا أن دبي منحتها ما هو أكثر من عقد عمل وصالون تجميل فخم خاص بها لاحقا، وهي من ظفر بزوج خليجي ثري بعد منافسة حادة من المقيمات وغيرهن من الوافدات الحالمات بحياة مرفهة.

****

استعدت خبيرة التجميل لرسم عيني مها بقلم أسود يزداد تألقه أكثر، من وجهة نظرها الفنية البحتة، وهو مستخدم على صفحة بيضاء مثل الثلج حتى تتجلى على الوجه حقيقة النفس الطاهرة، ولذلك اختارت لها أولا كريم أساس أفتح بدرجتين من لون بشرتها وزعته على كامل وجهها ورقبتها وكانت قد نثرت قبله بودرة خضراء لتمتزج مع لون كريم الأساس الفاتح ليعطي بشرتها اللون الأبيض المنشود لا أن يختلط مع لون بشرتها الأساسي فيستحيل إلى اللون الرمادي... كان ذلك يظهر سماكة على الوجه نوعا ما، إلا أنه كان يبرز في النهاية، من وجهة نظرها، جمال مها الحقيقي... وعلى الرغم من أن فرق اللون بين الوجه والرقبة من جهة والصدر وباقي الجسم من جهة

أخرى كان واضحا للعيان، إلا أن الانسجام برأيها بين أعماق روح مها النقية وصفاء محياها الآن، تحت كل تلك الطبقات،أصبح أوضح على أي حال !...

أخرجت القلم الأسود المدبب من غمده وأشهرته في وجه مها التي كانت لا تزال مستلقية على الطاولة مطبقة جفنيها وكأنها تغط في نوم عميق. وهي على حالتها تلك، وزعت على جفنيها ظل عيون فاتح حتى يموه تبطين عينيها، ثم تناولت ظلا رماديا غامقا وزعته بحركة رشيقة على الزاوية الخارجية لجفنها... ثم ابتعدت قليلا عن الجفن لتصل إلى عظمة عينها حتى تبدو عيناها أوسع من الخارج بقليل لأنهما في الأصل مقفلتان شيئا ما من طرفيهما. والآن حددت منبت الرموش بخط أسود رفيع من أول العين إلى آخرها أو ربما تجاوزتها قليلا، حتى أن الخط الداخلي لرسمة العين كان يلامس عظمة أنف مها بينما كاد يمر الخط الخارجي على عظمة عينها كلها... على أي حال كان ذلك مهمًّا حتى تبدو عينا مها اللتان كانتا صغيرتين نوعا ما أكبر بقليل من حجمهما، كل هذا وهي لا تزال تغط في سبات عميق، ولكنها سرعان ما أفاقت بمجرد أن أحست

عليها ثلاثة عشر...

بإبهام المزينة يمط جلد عظمة خدها الأيسر وسمعت كلمة السر :

– لفوق...

شرّعت مها عينيها بحركة آلية من دون أن تنبس، وأخذت هي ترسم عينيها من الأسفل، ثم بدأت بتركيب الرموش من فوق وتحت حتى تبدو العينان أوسع بقليل. لقد كان عليها رسم خطوط جديدة لعينيها، واللعب بألوان مختلفة لها، وتركيب رموش اصطناعية حتى تموّه صغر حجمهما وتبطينهما لتجعل ببساطة من مها... مها حقيقية... لقد كان ذلك جل ما تعشقه في مهنتها، لقد كانت تستمتع بعملها كثيرا لأنها كانت تحمل فيه رسالة إبراز الوجه الحقيقي للمرأة كما كانت تقول... والآن انتهت من الرسم والتلوين والتركيب... ووضعت لمسة أخيرة من البودرة الأفتح من كريم الأساس حتى تتألق البشرة أكثر وتدع الطريق صافيا أمام عيني مها لتثبتا وجودهما...

– ألا تريدين وضع ملمّع الشفاه ؟... طرحت سؤالها المكرر، وهي تزيل البودرة الزائدة على وجهها...

– لا... تعلمين أنه يبدو زائفا، وأنا أفضل دوما الشكل البسيط والطبيعي... أجابت ببرود.

نظرت إلى المرآة بعدم مبالاةٍ مصطنعة، وهي تحاول إخفاء شعور الزهو البالغ الذي انتابها وهي تتأمل عينيها الواسعتين، على الرغم من أنها كانت متعودة على شكلها هذا منذ زواجها لأنه لم يكن يفارقها حتى وهي نائمة.

لم تكن مها تزيل ماكياج عينيها إلا عند خبيرة التجميل عندما تأتي كل صباح إلى صالونها لتجدد لها نفس الماكياج كل يوم، فتمضي به كامل نهارها وحتى ليلها، إذ أنها لم تكن تتحمل فكرة أن يرى زوجها عينيها كل صباح أو بالأحرى ألا يراهما، ويعتقد أنه كان نائما مع الخادمة الآسيوية بدلا منها. كانت تلك فكرة تزعجها جدا، لكن ما كان يعزّيها هو اسمها... نعم... إنها حقا مها... مها... هكذا فكرت وهى تنظر إلى نفسها في المرآة...

****

فتحت الباب ودخلت المنزل منهكة بعد يوم تسوق شاق. أحست بحركة غريبة فى الطابق الثانى، يبدو أنها كانت تصدر من غرفتها. أصاخت السمع قليلا لتتأكد من الصوت لكنها لم تسمع شيئا مجددا. ربما كانت تلك مجرد تهيؤات

تبدت لها من شدة الإرهاق. ارتمت على الأريكة لتستريح قليلا قبل أن تصعد لغرفتها وأشعلت التلفاز.

مجددا القناة السيرلانكية... ؟

قالت بتذمر وهي تغير المحطة. كانت كل ما أشعلت التلفاز رأت أمام وجهها القناة السريلانكية أو الصينية أو الفيتنامية، لا تعرف ! ... كل ما كانت تراه أنها كانت قناة لأصحاب الأعين المقفلة، وكفى...

من الواضح أن الخادمة لا تكف عن مشاهدة التلفاز في غيابها...

فكرت وهي تنظر إليها وهي تنزل من السلالم وقد بدا عليها الاضطراب.

لابد أنها تخجل من نفسها لكونها تمضي الوقت في متابعة التلفاز بدلا من العمل... لكن لا بأس، ربما تشتاق إلى وطنها ! قالت في نفسها وقد امتنعت عن تأنيبها وتابعت مشاهدة التلفاز.

وعلى الرغم من أن مها نفسها كانت بعيدة عن وطنها، غير أنها لم تكن تشعر بحنين خاص إليه، فهي تبدو منصهرة كليا مع بيئتها الجديدة. وحتى إن كانت تعلم أنه من الصعب

الحصول على جنسيات بلدان معينةً لتحقيق الاندماج الكلي فيها، إلا أن ذلك لم يكن مهما على أي حال، فقد كانت تدرك ان المساحيق والكريمات التي تحرص على عدم خلعها عن وجهها بمثابة قناع الهوية الحقيقي للمرء في الكثير من المجتمعات... بل وكلما سمكت الطبقات وزاد عددها كلما ترسخت مكانة المرء فيها وعلا شأنه داخلها. فكرت وهي تتأمل بإعجاب قناعا كانت تضعه إحدى المذيعات محاولة تحديد جنسيتها من خلال لهجتها... لكن ذلك غير مهم، فكرت وهي تواصل التقليب بين القنوات، فاللهجات كلها أصبحت « بيضاء » على كل حال... والمهم أن قناعها جميل... « وأبيض »، والأهم من كل هذا وذاك أن وراء الأقنعة لا يمكن لأحد أن يشعر بالغربة تحت أى ظرف كان. وسرعان ما توقفت أمام قناة تعرض لراقصة لبنانية أغنية خليجية كانت آخر ما سمعته في أحد مطاعم الجزائر خلال آخر رحلة لها هناك... لم تتوقف كثيرا أمامها وغيرت المحطة. لا يبدو أن الأغنية قد أثارت اشتياقا ما في داخلها إلى بلدها. فكرت وهي تحاول تذكر طعم خاص لما بقي عالقا في ذاكرتها من هناك... وسرعان ما لفت انتباهها عرض أزياء لآخر موديلات العبايات في أحد البرامج وفكرت في

اقتناء بعضها كهدايا لأخواتها في رحلتها القادمة. لديها موعد آخر في نهاية الشهر مع طبيبتها هناك. وعلى أي حال لقد كانت دائما تزوّد نساء عائلتها بآخر صرعات العبايات التي لم يكن ينافسهن فيها أحد على الرغم من اختناق السوق المحلية بالعبايات السوداء التي أطاحت بالحايك المرمّة من عليائه في المناسبات الكبيرة والأعراس. وفجأة وجدت نفسها تحط على إحدى القنوات...

« تم أمس انتخاب ملكة جمال العالم في جنوب إفريقيا باشتراك أكثر من مئة دولة... »

توقفت أمام الخبر باهتمام لترى ملكة هذا العام، لكنها سرعان ما ندمت على توقفها في هذه المحطة عندما رأت زوجها يقف أمامها وقد أخذ له مكانا هو الآخر أمام التلفاز. شعرت بالاضطراب، وتمنت لو ينتهي الخبر بأسرع وقت من دون أن يرى الفائزة. كانت تشعر برغبة شديدة في تغيير المحطة لكنها لم تود أن يشعر زوجها بأنها تعمدت ذلك حتى لا يشاهد هو الخبر معها... لم تكن تريد أن تشعره بأنها غير واثقة من نفسها... نعم، فهي أيضا جميلة و لا يهمها حتى ملكة جمال العالم... لا يهمها أن ينظر

زوجها إلى نساء جميلات... فهي أجمل منهن حتما... نعم... إنها مها... حاولت إقناع نفسها بذلك... بل إنها متأكدة من ذلك... قد تكون أعين بعضهن أوسع بقليل أو أكبر بقليل من عينيها، لكن الماكياج يجعلها تبدو مثلهن تماما... نعم... إنها جميلة... حاولت إخفاء الاضطراب الشديد الذي أصابها قبل إظهار الملكة وفي ظرف ثوان قليلة أتت ساعة الحقيقة... وأطلت الملكة... ملكة جمال العالم... من... الصين... نعم من الصين... لم تصدق عينيها... !!!

– ملكة جمال العالم من ذوات الأعين الصغيرة !

لم تتمكن من إخفاء ابتسامتها وهي تتأملها. تمنت في تلك اللحظة أن يستمر الخبر لساعات وساعات حتى يتأكد زوجها من أنها حقا أجمل من ملكة جمال العالم... كم هي جميلة ساعة الحقيقة... إن عينيها تبدوان فعلا أكبر بفعل كل تلك المساحيق والأقلام... نعم...

– أنا أجمل... !!

وبسرعة ألقت عليه نظرة نصر لتتأكد من أن زوجها يشعر تماما بما تشعر به هي، ولكنها تفاجأت به وعيناه مسمرتان

على الشاشة وفمه فاغر كما لم تره يوما قط... شعرت للحظة بهبوط شديد في دورتها الدموية... لم تفهم ما الذي يحصل أمامها... نظرت إلى التلفاز مجددا لتتأكد من أنها تتابع نفس الخبر الذي يتابعه هو... نظرت... دققت... تأكدت... وفهمت كل شيء...

لابد أنه ينظر إلى وصيفتها الشقراء صاحبة العينين الملوّنتين...

حاولت تهدئة نفسها وفكرت...

لا بأس... غدا سأصبغ شعري وأبدأ باستخدام العدسات الملونة...

بين « رون » وذي الرمة

وقفت أمام المرآة تسرح شعرها الجعد الكستنائي، وهي تتأمل تقاسيم وجهها بإعجاب، وتدقق في وجهها وتتفحصه كأنما تراه للمرة الأولى. انتهت من لمّ شعرها إلى الوراء، والتأكد من تثبيت كل الخصلات التي يمكن أن تتدلى على جبهتها أو تنساب على خدها بمستحضر تثبيت الشعر، تماما كما نصحتها والدتها منذ بضع سنوات، وذلك من أجل إبراز ملامحها الناعمة التي ينبغي أن تكون دوما في محرق تركيز الرائي، لا خصلات شعر تداري وجهها، فتغطي ثلاثة أرباع جماله.

– لا تعبئي كثيرا بتسريحات الشعر المختلفة... ركّزي دوما على أن تبرزي وجهك الناعم هذا أكثر، فالوجه مكمن جمال المرأة الحقيقي...

هذا ما قالته لها أمها في بداية مراهقتها عندما لاحظت بداية قلقها بشأن نوعية شعرها وطريقة تصفيفه. لقد كانت كل يوم تأتي من المدرسة باكية لأنها تريد شعرا ناعما مثل شعر عفاف، وغرّة ملساء مثل غرة أسماء.

لم تكن الأم قادرة على التحكم في تسريحة شعر ابنتها بسبب نوعه الذي لم يكن مطواعا لتصفيفه بشكل جذاب على الرغم من أنها لم تعدم استخدام أي نوع من أنواع الشامبوهات أو الكريمات أو المستحضرات الخاصة بالشعر لتدجينه وترويض تموجاته، ولكن عندما أحست أن شعر ابنتها غدا أشبه بالعقدة التي لا حل لها عندها، وأصبح علاوة على ذلك يشكل عبئا ثقيلا على جيبها اهتدت إلى هذه الفكرة :

– ألا تلاحظين أن جميع زميلاتك ممن يتباهين بجمال شعرهن ونعومته لسن سوى فتيات قبيحات الوجه نافرات التقاسيم... لا يحاولن سوى خلق تناظر في وجوههن بالتفنن في تصفيف شعورهن، وكل ذلك من أجل صرف النظر عن ضخامة ملامحهن ؟

فكرت قليلا وقد صدمتها جدّة هذه الفكرة التي لم تخطر يوما ببالها.

– نعم. قالت بتردد. ربما !

– لا ليس ربما ! قالت الأم بحزم. وأنت عليك أن تفعلي مثلهن تماما. اصرفي النظر عن شعرك، بجلب النظر إلى وجهك... وتأكدي أنك سوف تهزمينهن جميعا، فوجهك أجمل بكثير من شعرهن.

كانت تتذكر هذه الكلمات كلما وقفت أمام المرآة تتهيأ للخروج وكانها تعاويذ كانت تضخ فيها اقصى حدود الثقة. لقد بدأت اعتماد تسريحة الشعر الصامتة تلك، لكي تدع المجال لوجهها أن يتكلم منذ أن نصحتها والدتها بذلك، ولكنها كرستها تسريحة رسمية لها لدى اقتناعها الكلي بها بعد أن بدأت تأتي أكلها معها، وقد أصبح الجميع ينتبه لنعومة ملامحها ويطري على رقة تقاسيمها...

****

لمياء في شفتيها حوّة لعس
وفي اللثات وفي أنيابها شنب

لم يكن هذا البيت الشعري بالتأكيد هو أكثر ما سمعته إطراء لها، بل بالعكس كان سبب تركها لصديقها الذي

قرر لسوء حظه استعماله للتغزل بها. كان يعلم أنها لم تكن ضليعة بما فيه الكفاية بالشعر العربي حتى تكتشف انتحاله لهذا البيت، ولكن لسوء حظه كانت أسوأ في اللغة مما كان يتخيل حتى تفهم على الأقل أن البيت مأخوذ من شعر غزل لا من شعر هجاء. حاول المسكين عبثا أن يشرح لها أن الشّنب ميزة جمال لدى المرأة، وليس كما تعتقد، فـ « الشنب رقة وبرد وعذوبة في الأسنان »... لكنها أغلقت الهاتف في وجهه ورفضت الحديث معه مجددا بعد هذا الشرح الذي بدا أنه زاد الأمور سوءا، ولم تنس في النهاية أن تنصحه بأن يتخلى عن فكرة قرض الشِّعر، لأنه أسوأ رجل يمكن أن يتغزل بامرأة، ثم توجت قطع علاقتها كليا به بحجبه من قائمة أصدقائها على الفايسبوك.

وضع الهاتف وقد أصابه الإحباط، وفكر في أنه ما من شيء يمكن له أن يصحح هذا الموقف سوى الاعتراف لها بالحقيقة كاملة، حقيقة أن هذا البيت الشعري ليس إلا لشاعر جاهلي اسمه ذو الرّمّة وأنه قام بانتحاله لنفسه...

– اذهب إذن وكرر هذا البيت على مسامع امرأة جاهلية وليس عليّ أيها البائس...

بهذه الكلمات سدت عليه كل مساعي العودة إليها وإرجاع الأمور لمجاريها معها.. على الرغم من أنه كان مستعدا ليستظهر لها بالدليل المثبت كل ما حفظه عن ظهر قلب :

« والشّنب حداثة وطراءة في الأسنان... لأنها إذا أتت عليها السنون احتكت... و... »

... لكنها لم تعطه فرصة للكلام...

****

لم تكن من محبي الماكياج الصارخ. لم تكن تحب القسوة على نعومة ملامحها بخطوط زينة قاسية لم تكن تعتمدها سوى دبجات الملامح للاختباء من تفاصيل وجوههن الأصلية، أما هي فقد كانت تريد تأكيد ملامحها الإسكندنافية، لا إخفاءها... ولأجل ذلك لم تكن تتخلى أبدا عن أحمر شفاهها، على الرغم من أنها لم تكن سوى طالبة في الثانوية، فقد كان أحمر الشفاه يحدد ما تعتبره نقطة القوة الكبرى في وجهها : فمها. لقد كانت مصرة على رسم حدود ثغرها لدعم لطف مبسمها الذي يندى عن

ابتسامة كان يؤكد لها كل من يراها أنها أكثر ما يعزز شبهها الكبير بنجمة هوليوود نيكول كيدمان.

كان ذلك هو الإطراء الأحب إلى قلبها والأغلى على نفسها لأنه كان يدغدغ أنوثتها، ويداعب نرجسيتها، كيف لا والجميع يؤكد أنها شبيهة نجمة من نجمات هوليوود وواحدة من بين أجمل نساء العالم حسب استفتاءات مختلف المواقع الإلكترونية... كانت تلاحق جميع أخبارها وتتابع كل جديدها، وتستمتع في البحث على الإنترنت كل مساء عن استفتاءات جديدة حول العالم تتوج فيها شبيهتها كصاحبة أنعم ملامح... وأعذب نظرات... وأجمل أنف... لتحمّل بعدها آخر صورها وتحدّث بها بروفيلها على الفايس، ثم تنتظر بشوق إعجاب أصدقائها بها. كان كل ذلك يعزز ثقتها أكثر بنفسها، ويعطيها دفعا للنهوض كل يوم باكرا والاستعداد ليوم جديد تشد فيه شعرها إلى الوراء... تبرز كل زاوية من وجهها... تذهب إلى ثانويتها... وتحارب بشراسة كل زميلة تسول لها نفسها إغاظتها بشعرها.

****

جلست كعادتها لتقرأ آخر ما كتب « عنها » على الإنترنت وإحصاء أعداد الـ « جام » التي حصلت عليها لصور سابقة قامت بنشرها، وقد نال التعب منها قسطا كبيرا.كان امتحان الأدب العربي صعبا جدا لذلك اليوم، كان يبدو أنه استنزف طاقتها لدرجة أنها لم تكن تستطيع حتى أن تجلس باعتدال على الكرسي لكنها لم تكن تستطيع مع ذلك التخلي عن العادة التي كرستها لنفسها كطقس يومي لابد من القيام به كل مساء، ولم يكن لها أن تتخلى عنه في ذلك اليوم بالتحديد خصوصا بعد التقائها بالصدفة في ساحة الثانوية بصديقها السابق الذي قلّب عليها مرآه الكثير من المواجع، وأثر على نفسيتها أكثر من امتحان الأدب نفسه الذي كانت متيقنة أنها ستعوض نتيجته بامتحان اللغات الأجنبية التي كانت متفوقة جدا فيها...

– ذلك البائس... لا يعرف أنني شبيهة أجمل نساء العالم... فكرت به وهي تكز على أسنانها متجاهلة طلب الصداقة العاشر الذي أرسله لها بعد حجبه من قائمة أصدقائها...

لم تكن تستطيع أن تنسى له ذلك البيت الشعري الذي قاله فيها، ولا أن تغفر له وصفه إياها بالشنباء...

– كيف تجرأ على قول هذا ؟ من يحسب نفسه ؟

وفجأة شعرت أن الأرض قد تزلزلت تحت أقدامها، أو أنها ترى كابوسا... كان ذلك أسوأ شيء حصل في حياتها...

وأكّد « رون بيز » أن نيكول كيدمان هي صاحبة أسوأ ابتسامة في هوليوود لصغر اسنانها وحدة انيابها، ويذكر أنّ رون هو أهم طبيب أسنان في بيفرلي هيلز و... »

لم تكن تصدق عينيها... ولكنها تفهم هذه اللغة، إنها متأكدة أنها تفهمها... إلا أنها شعرت في تلك اللحظة أنها لا تقوى على فهم أي شيء من حولها... أو أنها لم تكن تريد ذلك... وللحظة تذكرت ذا الرمّة وشِعر ذي الرمة، لكنها لم تكن تفهمه هو الآخر... وفجأة شعرت أنها لا تفهم شيئا على الإطلاق... أخفت وجهها بين كفيها، وانهارت على الطاولة... وبدا للحظات أنها دخلت في نوم عميق... لكنها كانت تفكر... كانت حائرة... فكرت في أسنانها... يجب أن تصرف عنها النظر من اليوم فصاعدا... ثم تذكرت شَعرها... نعم لابد لها من

أن تنفش فيه شعرها حتى تصرف الأنظار عن أسنانها... كانت تائهة... بين رون وذي الرمة... كانت فعلا ضائعة بين شعرها واسنانها... لم تعد تعرف ما الذي ينبغي عليها فعله... كانت حائرة... كانت تائهة... وانهارت باكية...

أبراج قمرية

بدت تائهة أمام القنوات الفضائية وهي تبحث عن برنامج لمتابعته. كانت تبدو مرتبكة نوعا ما. كانت تبحث عن برنامج، أي برنامج، لكنها لم تكن تعرف من أين تبدأ... في الواقع لم تكن تعرف طلبها بالتحديد حتى تبدأ من حيث ينبغي ان تبدأ. كل ما كانت تعرفه هو انها قررت أن تشبههن. نعم، لقد قررت البارحة، أن تصبح متنطعة !

لقد قيل لها أن هذا الأمر أصبح على الموضة، ولابد أن تجاريه، فهي مقبلة على علاقة واعدة لا يمكن أن تبرز فيها أمامه أقل تنطعا من الممثلات والراقصات وشهيرات الفضائيات. توقفت فجأة أمام « فنانة » لم تكن تعرف اسمها... لكن طريقتها في الحديث هي ربما تلك الطريقة

الرائجة التي يتحدثون عنها... ولكن فجأة تغيرت المحطة من أمامها...

– ألم تغير طريقتها في الكلام بعد ؟ قالت وهي تلوّح بيدها ضجرا...

– أرجوك دعيها، أنا أحاول أن أتعلم منها التنطع...

– هذا الأمر قد بطلت موضته منذ ثلاث سنوات تقريبا. قالت وهي تقلب بين القنوات بثقة. أسلوب الكلمات المثالية المصفوف هذا قد أصبح موضة قديمة منذ زمن...

– وما هي الموضة الآن إذن ؟ قالت متوسلة... أخبريني أرجوك، لم يبق أمامي الكثير من الوقت... سأخرج معه بعد أسبوع فقط...

كانت تتحرق شوقا لمعرفة الموضة السائدة حتى تبدأ التدرب عليها قبل أن تقابل حبيبها الموعود الأسبوع القادم. لم تكن في الواقع خبيرة في شؤون المواعدة، والدليل هو بقاؤها عزباء وهي في هذه السن، أما صديقتها فقد كانت في الواقع خبيرة في هذه المواضيع، وكانت بمثابة مستشارة علاقات عامة بالنسبة لها. لقد كانت أكثر خبرة منها في الحياة الاجتماعية، فقد تركت مقاعد الدراسة منذ

زمن، وتفرغت لمشاهدة التلفاز وحضور المناسبات والأعراس ومشاهدة البرامج الحوارية مع النجمات، الأمر الذي خولها لتصبح شبه خبيرة في مختلف ضروب موضة السلوكيات والتصرفات الاجتماعية.

– الآن الموضة الرائجة هي « السبونتانييتي »... وليس التنطع...

– « السبونتانييتى »... ؟ قالت باستغراب. كيف ؟

– يعني أن تكوني على طبيعتك. أجابت وهي ترفرف بعينيها وقد بدا وكأن العدسات الزرقاء اللاصقة التي تعتمدها كانت تضايقها. من المهم جدا أن تبدي تلقائية وطبيعية في تعاملاتك اليوم، وليس متنطعة...

– هذا أمر رائع. قالت بنبرة احتفالية. تبدو هذه الموضة عملية أكثر وأريح بكثير من موضة التنطع. وارتسمت ابتسامة نصر عريضة على شفتيها...

– الأمور ليست بهذه السهولة. قالت وقد بدا أنها قرأت أفكارها. ليس كل ما هو عملي ومريح يليق بالجميع.

– ما الذي تقصدينه ؟ سألت بخيبة أمل.

– أقصد أن موضة التلقائية موضة مثل كل موضة... إذا كانت طبيعتك أصلا مناسبة لمجاراتها، يمكن أن تعتمديها بسهولة، أما إن كانت طبيعتك وتلقائيتك « الأصلية » ليست ملائمة لها فأنت تصبحين مضطرة لتصميم تلقائية أخرى تظهرين بها، وتكون مناسبة للعرض أكثر أمام الناس. وهكذا تبقين دوما على الموضة...

– أنا لا أفهمك. قالت وقد اختلطت عليها الأمور...

– سأشرح لك. وجلست حتى تتأكد من أنها ستدخل الفكرة تماما إلى رأسها. سأعطيك مثالا على كلامي :

بنطال الجينز ذو الخصر العالي مثلا رائج، وعملي ومريح جدا، لكنه لا يليق بذوات الورك العريض... فإذا كانت من تريد ارتداء هذا السروال ذات ورك عريض، ما الذي ينبغي لها أن تفعله ؟ هل تسارع فورا لارتدائه مع أنه لا يناسب جسمها...

– طبعا لا. أجابت بتلقائية.

– وفي هذا الحال ما هو الحل في رأيك ؟

– أن تلبس بنطالا عاديا...

– لكنها لن تكون علئ الموضة هكذا... ردت بعصبية.

– إذن ما الحل ؟ سألت بصدق...

– الحل هو أن تتبع حمية قاسية لتتخلص من وركها في أسرع وقت وتتمكن من لبس الجينز الرائج قبل أن تبطل موضته...

– اه... معك حق... ! اجابت وهي تشعر بالخيبة.

لقد فهمت أن موضة التلقائية المشروطة هذه لا تناسبها. لم تكن طبيعتها « الأصلية » مناسبة إطلاقا للعرض كما اتضح لها، لقد عرفت ذلك من خلال أول رجل واعدته منذ بضعة أشهر، لقد كانت معه على طبيعتها تماما، ولكن من الواضح أنها لم تعجبه. لقد تحدثت معه طيلة ذلك اليوم عن « الرسالة في العلة الفاعلة للمد والجزر » وهو كتاب كانت تجري عليه بحثا من البحوث في جامعتها. إلا أنه لم يعاود الاتصال بها بعدها. لقد أخبرتها صديقتها بأن الرجل لا يحب عادةً المرأة الأذكى منه، وأنه لم يكن عليها أن تتحدث معه على الإطلاق في كتاب معقد لا يفهم فيه شيئا فتشعره بعجزه أمامها. وأما الرجل الثاني الذي قابلته

منذ بضعة أسابيع فقد حاولت أن تكون معه جد بسيطة، وقد تعلمت من أخطاء المواعدة الأولى. كانت على طبيعتها للغاية، فأخذت تحدثه عن روتين عملها اليومي وذهابها كل يوم من البيت إلى الجامعة، وطريقة انتقائها الخضار في السوق، وتقطيعها لشرائح الخيار والبطاطس في المطبخ... ولكنها لم تعجبه هو الآخر، ولم يعاود الاتصال بها. وقد عللت لها إحدى صديقاتها سبب ذلك بأن طريقة حديثها معه كانت مملة وينقصها بعض التنطع لذلك فلم تتمكن من إثارة اهتمامه، ولم يعد ثانية للاتصال بها.

– اسمعي لا تقلقي.

اقتربت منها وهي تحاول طمأنتها وقد قرأت في عينيها القلق من فكرة تعلم « التلقائية الفعّالة » كما كان يروق لها تسميتها.

– فن تعلم التلقائية الفعالة ليس بالأمر الصعب. انظري إليّ أنا مثلا، ألا أبدو تلقائية وأنا أتحدث معك اليوم ؟

– نعم... أجابت ببعض التردد.

– أرأيت ؟ قالت بزهو. هذا على الرغم من أنني قد استغرقت البارحة وقتا طويلا وأنا أحاول حفظ اللفظ

الصحيح لكلمة « سبونتانييتي »، وذلك حتى أبدو متعددة لغات بالطبيعة وأنا أتكلم بسلاسة وطلاقة ومن دون أي تصنع ليتأكد يوسف بأنني تماما الفتاة « الكول » التي يبحث عنها...

نظرت إليها بعمق، وكأنها استخلصت زبدة الحديث الذي بدأته معها منذ نصف ساعة من خلال الجملة الأخيرة فقط...

– هكذا إذن ؟ قالت بخيبة. ما يحدد نوع التلقائية التي يجدر بنا اعتمادها هو ما يحب هو أن نكون عليه ؟

– نعم... أجابت بحزم. طبعا !

– ولكن كيف نعرف نوع الفتاة التي يريدها ؟ هذا ما لم أتمكن يوما من معرفته !

– لا تقلقي... هذا أمر سهل !

– سهل ؟! قالت وهي تنتفض من مكانها. لقد ضيعت شابين من قبل لأنني لم أتمكن من معرفة هذا الأمر، وتقولين لي الآن أنه « سهل »... كيف ؟!

– كل شيء يكمن في برجه ! قالت وهي تبتسم بمكر... فبرجه يحدد كل شيء عنه !

****

دخلت المكتبة وأخذت تقلب بين الكتب. كانت تنوي البدء ببحث جديد تلهي به نفسها في الأعوام القادمة. لقد فشلت في موعدها الثالث أيضا، واقتنعت بأنها لن تتزوج يوما في حياتها، نعم... إنها لن تتزوج، فهي لا تروقهم... لا تروقهم.

لا يروقهم نجاحي ! فكرت وهي تقلب « صور الكوكب الثمانية والأربعين »...

إنها الآن تعتزم القيام ببحث يغير تاريخ علم الفلك. تريد أن تغيظهم أكثر فأكثر.

نعم، يغارون مني... وأنا سأجعلهم يغارون أكثر...

لقد كان ذلك هو التفسير الذي خرجت به بعد فشل موعدها الثالث على الرغم من كل التحضيرات التي سبقته.

لقد تمكنت قبل يومين من لقائه من معرفة تاريخ ميلاده، وتحديد برجه، وقراءة ما يحب وما لا يحب فعله معه في

كتاب « برجك إيه » الذي أعارته لها صديقتها من أجل إنجاح موعدها. لكنها مع ذلك لم تعجبه. لقد قامت بكل ما أمَرَها به الكتاب من أمور لإسعاد رجل « الثور »، لكنه لم يعاود الاتصال بها... لقد فعلت كل شيء... واتبعت جميع الإرشادات الخاصة ببرجه لكنها مع ذلك لم ترقه... لماذا ؟ ما الذي قد يكون تفسير ذلك غير أنه يغار منها...

... البديع الاسطرلابي... الجغميني... سليمان المهري... كلهم رجال... رجال... رجال بائسون... كلهم بائسون... !!

فكرت وهي تقلب بين الكتب وقد بدأت تشعر بالمزيد من السخط وهي تقرأ هذه الأسماء. يبدو أنها أصبحت ناقمة على كل جنس الرجال.

سأقوم ببحث أسقط به كل مؤلفاتهم في مزبلة علم الفلك... نعم... وسأجعل جميع رجال الكرة الأرضية يزداد جنونهم أكثر مني... إنهم يغارون مني...

وبينما هي مشغولة في البحث بين الكتب وصلتها رسالة نصية من صديقتها : ... إنه « كلب »... « كلب »...

لقد نسينا دراسة برجه الصيني... برجه الصيني يقول أنه « كلب » والكلب يتوقع من المرأة الاتصال به بعد المواعدة... لا يزال عندك أمل... ».

– كلب ! ...

دست الهاتف في جيبها وواصلت البحث بين الكتب بجدية أكبر وكأنها لم تقرأ تلك الرسالة...

– نعم، سأقوم ببحث غير مسبوق. سأقوم ببحث كبير... كبير جدا ! فكرت وهي مفعمة بالحماسة.

وتابعت البحث بين الكتب... كانت تبحث بجدية وحماس كبيرين، من الواضح أنها قد عزمت على القيام بذلك البحث...

سيكون أول بحث عن الأبراج القمرية... سأكون مبتكرة الأبراج القمرية... لم يتصد أحد قبلي لهذه الفكرة... سأضع لكل شهر قمري ما يقابله من برج...

فكرت ودقات قلبها تزداد خفقانا...

برج الإبل لمواليد جمادى الأول... وبرج الكثبان لمواليد شعبان... وبرج النّقب لمواليد رجب...

لقد بدأت الأفكار تنساب إلى دماغها...

ستكون دراسة ملهمة... دراسة غير مسبوقة... دراسة كاملة على أساس برجه الشمسي، والصيني، والقمري... نعم، ستكون أهم دراسة أقوم بها على الإطلاق، سأعرف كل شيء عنه... وسأتزوجه... نعم سأتزوجه.

تكلّمي

جلست على الكرسي، وعدّلت بحركة آلية ياقة قميصها ثم ألقت نظرة سريعة على أوراقها، وهي تحرص على عدم تحريك رأسها بزوايا عنيفة حتى لا تتزعزع خصل شعرها عن الشكل الذي هندسها عليها كوافير المحطة بعد دراسة معمقة لشكل فكها وتحليل شامل لأبعاد وجهها. تلفتت إلى المونيتور لإلقاء نظرة على شكلها، قبل البدء بالتصوير، وبحركة غير مقصودة تسببت في ميلان خصلة شعر كانت مركزية بل وشديدة الأهمية بالنسبة لتسريحة شعرها لذلك اليوم. كانت تلك خصلة شعر ثبتها الكوافير على خدها الأيمن بزاوية معقوفة قليلا إلى فوق، حتى تكسر من حدة ذقنها وتداري عرض فكها الذي كان يبدو عدائيا نوعا ما على الكاميرا. هب مصفّف الشعر من غرفة الكونترول إلى

عليها ثلاثة عشر...

داخل الاستوديو بمجرد حدوث الخلل في حركة دفاعية عن عمله لإعادة الأمور إلى نصابها ولحق به الماكيير بسرعة حتى يعيد ترميم المنطقة التي عمل عليها ويتأكد من أن مصفف الشعر لم يصب بفرشاته أحمر الخدود الذي قام بتوزيعه على عظمة خد المذيعة على نحو يحقق أفضل انعكاس للإضاءة على وجهها.

خضعت لأعمال الإصلاح السريعة في بضع ثوان، وعادت لتعدّل ياقة قميصها مجددا، ولكن هذه المرة مع الحرص على تثبيت رقبتها حتى لا يميل طرف على الآخر فيزيد من حدة اللاتناظر البسيط الذي اكتشفت وجوده بين خدها الأيمن والأيسر بعد خضوعها لعملية الحقن منذ أسبوع، والذي حرص الكوافير على تعديله من جهته بخلق لا تناظر مضاد بين خصل الشعر المتدلية على وجهها من الجانبين.

نظرت إلى المونيتور وأخذت تتأمل شكلها النهائي، وتتأكد بنفسها من عدم وجود أي خلل في مظهرها قبل الانطلاق في التصوير. وكالعادة توقفت للحظات أمام أنفها ولكن هذه المرة لتتأمله بإعجاب بعدما أجرت له منذ يومين عملية تجميل لتضييق فتحاته قليلا والتي لم تكن

واسعة بالأصل جدا إلا أنها على الشاشة كانت تبدو أوسع بقليل من حقيقتها. لقد كان منخارها في الواقع صغيرا إلا أنها كانت مضطرة كمذيعة لمسايرة ربة عملها التي كانت تنزع بطبعها لتضخيم الأشكال. ولذات السبب فقد كانت مضطرة للخضوع أيضا إلى حمية غذائية تنقص بها وزنها خمسة كيلوغرامات عن وزنها الطبيعي من أجل أن تبدو على الشاشة بالوزن المثالي وتظهر على المشاهدين غيداء ممشوقة لا خدبجة رداح، ولكن ولسبب ما لم تكن الكاميرا عادلة في تضخيم كل شيء معها، ولذلك ارتأت، بخضوعها لهذه الحمية المزمنة، ضرورة تكبير صدرها، الذي كان يبدو مسطحا بشكل ما على الشاشة، وحقن وجهها الذي كان هو الآخر بالأصل ممتلئا ولكن ربة عملها مجددا، الكاميرا لم تكن تعطيه حقه كما تعطيه لغيرها من المذيعات... نعم لقد كانت تلك هي المشكلة الوحيدة التي كانت تواجهها في عملها : الغيرة... غيرة الكاميرا من وجهها الذي كانت تصر على عدم إظهار جماله الحقيقي الكامل الذي كان مصدر غيرة جميع زميلاتها خلال سنوات دراستها الجامعية... غيرة لم تفاجأ بها في عملها على أي

حال لأنها تعودت عليها من جميع بنات جنسها ، وكان أول من كشفها لها مصور في أول محطة عملت بها :

– يبدو أنها لا تحب وجهك...

وبذكائها المعتاد عملت ومنذ التحاقها بعملها في الفضائيات على إخضاع ربة عملها الغيور وإرغامها على أن تحب وجهها، وذلك بالخضوع لعملية تجميل تلو الأخرى حتى تعدّل كل ما تحاول تلك الكاميرا تشويهه في صورتها من خلال عدستها. واليوم وهي تتأمل وجهها قبل لحظات من انطلاق التصوير، شعرت بإحساس قوي يجتاح أعماقها. لقد كان ذلك شعورا يشبه النصر... نعم أخيرا حققت النصر الأكبر في مهنتها... هكذا فكرت وهي تفتتح أول حلقة من برنامجها « تكلّمي »...

« ... وسيتطرق موضوع حلقتنا اليوم إلى حقوق المرأة الريفية المهضومة... المرأة التي تعاني من عدم الحصول على فرص متكافئة مع الرجل، على الرغم من أن « اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة » تدعو إلى كفالة المساواة في الحقوق بين المرأة والرجل بصرف النظر عن أي اعتبارات اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية... ».

وتابعت سرد مقدمتها التي كانت مكتوبة ومشكّلة بدقة على الملقّن التلفزيوني إلى أن أتمت ربع ساعة دعتنا بعدها مباشرة إلى أخذ فاصل إعلاني سريع، توّجته بابتسامة عريضة تأكدت عبر المونيتور أن تلبيسة أسنانها الخزفية تبدو من خلالها بالشكل المناسب والبياض اللازم لتظهر بهما على الشاشة...

عادت مبتهجة بعد الفاصل، وبابتسامة خزفية أعرض، رحّبت بضيف البرنامج الذي دعت الحاجة لتبرير حضوره لإلقاء مقدمة أخرى...

« وعلى الرغم من أن « تكلّمي » برنامج أردناه أن يكون منبرا لكل امرأة مضطهدة سُلب منها الحق في الكلام حتى تعبّر من خلاله عن انشغالاتها، وهمومها ومطالبها، وكل ما يقض مضجعها... إلا أننا وفي حصتنا اليوم نستضيف وللمفارقة رجلا لن يشكل وجوده معنا إلا دليلا آخر على الغياب الأكبر للمرأة الريفية معنا والتي خصصنا لها اليوم موضوع حصتنا، والتي لا زالت مهضومة الحقوق في بلداننا... »

وتابعت القراءة، وهي تشعر بزهو كبير، وصورة المشاهد ماثلة أمام عينيها وهي تتخيل الأثر الذي سيتركه كلامها

على نفسه. كانت متأكدة من أن برنامجها سيحدث ثورة في العقلية الذكورية... نعم « تكلمي » سيدفع كل رجل لإعادة حساباته، وتغيير ذهنيته... « إنها تتكلم »... سينسى الرجال بعد هذه الحلقة العبارة السخيفة : « كوني جميلة... واخرسي »، ليستبدلوها مباشرة وعن قناعة راسخة بعنوان برنامجها... كوني حسناء و « تكلّمي ».

وبعد انتهاء الفاصل الإعلاني الثاني الذي انتهت قبله من تقديم الضيف، ارتسمت علامات الجدية على وجهها وهي تهم بطرح أول سؤال على الضيف :

– سيدي، أين هي التدابير التي التزمت الدول الموقعة على « اتفاقية سيداو » باتخاذها من أجل القضاء على التمييز ضد المرأة فى المناطق الريفية، والتى تكفل لها على أساس التساوي مع الرجل والمشاركة في التنمية الريفية والاستفادة منها... وهنا أتحدث بشكل خاص عن الحق في المشاركة في وضع وتنفيذ التخطيط الإنمائي على جميع المستويات، بحسب ما تنص عليه المادة الـ 14 من السيداو...

– في الواقع يا سيدتي، المرأة الريفية عندنا ليست بحاجة إلى السيداو أو غيرها من الاتفاقيات لتحقيق هذا

الهدف، فالمرأة في الريف هي شريكة فعلية للرجل منذ زمن، فهي تقوم باتخاذ اخطر القرارات في عائلتها، وينسحب ذلك على قريتها... صحيح أنها تعاني من مشاكل وكلنا يعاني مشاكل لكن...

وفي تلك اللحظة بدا عليها نوع من الاضطراب. يبدو أن موضوع المشاكل التي تعانيها المرأة الريفية قد أشعرها للحظة بالاضطراب... ما كان يجدر بها أن تجري عملية الحقن والتصغير... لا... لم يكن عليها فعل ذلك...

– كان علي أن أجلس مع معد الحلقة أكثر، لأتأكد من أنه كتب ما يكفي من الكلام حتى أتمكن من التكلم... لابد لي من أن أتكلم... هذا البرنامج برنامجي وأنا التي لابد لها من أن تتكلم هنا !

... نظرت إليه نظرات خاوية من المعنى...

تبا له... فكرت وهي حانقة على معدّ الحصة.

ليتني فقط حضرت للموضوع قليلا... فكرت وعلامات الارتباك بدات تتسرب إلى وجهها.

إنه لا يزال يتكلم... ويتكلم... ويتكلم... وهي لا تعرف ما تقوله له...

لا ينبغي له أن يستمر في الكلام... أنا من يجدر بي أن أتكلم هنا...

وهنا بدأ الاضطراب يسيطر على حركاتها، وأخذت حبات العرق تنمو على جبينها... وفجأة ازدادت درجة الاضطراب في داخلها، وعبرت عنها بحركة غريزية لم تحضّر لها... مع أنها تتدرب على كل الحركات التي ستؤديها في البرنامج قبل ظهورها...

يا إلهي... ستبدو بشرتي دهنية على الشاشة. أشعرتها هذه الفكرة برعب شديد. لا، ستسخر منها زميلاتها ! ...

وبحركة آلية أمسكت منديلها وجففت كامل وجهها... وفجأة صرخ المخرج في أذنها، وفي لحظة قاطعت الضيف وتم الخروج بإعلان مفاجئ. وبمجرد إغلاق الكاميرا، استنفر الجميع وهب الكوافير متبوعا بالماكييير نحو المذيعة لإصلاح ما أفسدته في وجهها... خصلات شعرها... وكريم أساسها... وأحمر خدودها. لقد خربت بحركة واحدة عملا دام صبيحة بأكملها من أجل خلق تناظر بين خدها الأيمن والأيسر، وتوازن في عرض فكها، وشكل ذقنها.

بقي الضيف مبهوتا للحظات من غرابة المشهد... لم يكن يصدق ما يراه من طبقات مساحيق على وجهها، ومثبتات قاسية على شعرها. كان يبدو مشدوها، ولا يفهم ما يجري من حوله...

– هذا هو عملنا، نضطر لذلك من أجل الإضاءة التي تمتص لوننا الطبيعي... قالت بنبرة اعتذارية لا تخلو من فخر مبطن.

وبتلقائية ريفية لم تتوقعها أجاب :

– عرفت أنه لا بد أن يكون هناك شيء ما وأنا أتحدث معك... فأنت تبدين أجمل بكثير على التلفزيون...

وفي تلك اللحظة، ساورها شعور غريب لم تشعر بمثله من قبل. فبعد سنين من العمل التلفزيوني المتواصل كان يؤكد لها فيها كل من رآها أنها أجمل على الطبيعة منه على الشاشة، أتى أخيرا أحدهم اليوم ليؤكد لها أنها أجمل على الشاشة منه على الطبيعة... أخيرا حققت حلمها... نعم لقد حققت حلم حياتها... لقد أخضعتها... أخضعتها...

وواصل هو تعقيبه بحسرة : خسارة... مع أنك كنت أجمل فتيات قريتنا !...

من نوع آخر

لم يكن يبدو وكأنها تكترث. كان يفترض أن تكون أكثر من ينبغي لها أن يكترث، لكنها مع ذلك لم تكن تظهر كذلك. كانت تثير استغرابهن وربما إعجابهم بعدم اكتراثها في وقت كان الجميع فيه يكترث. لقد بدأت تثير التساؤلات حول سرها. وقد غدا الكثير يعتقد انها تمثل عدم الاكتراث. إذ كن جميعهن يكترثن، على الرغم من أن بعضهن لم يكن بحاجة للاكتراث أصلا. وأما هي فلم تكن تكترث. لا بد أن تكون امرأة من نوع آخر. ولكن ما الذي ذهبت لتفعله هناك إن لم تكن حقا تكترث ؟!

دخلت قاعة الانتظار بكل ثقة، والتقطت أول مجلة سقطت عليها عينها لتقلبها كعادتها بعدم اكتراث. وكعادتها أيضا لدى حلولها في أي مكان، كانت محطّ

أنظار الجميع. لم تكن بحاجة إلى أن تعلن عدم اكتراثها على الملأ حتى تلفت انتباه الجميع إليها وتجعلهم يصبون جام انتباههم عليها... لا، فقد كان كل شيء فيها ينضح بعدم الاكتراث ولم تكن بحاجة إلى أن تتكلم ليعرف الجميع عنها ذلك. كان من الواضح أنها امرأة من نوع آخر.

أخذت تقلب صفحات مجلة الموضة والابتسامة تجلل محياها. كان الجميع يحدجها باستغراب محاولا ترجمة ابتسامتها لعلهم يكشفون سر عدم اكتراثها من خلالها. هل كانت تلك ابتسامة سخرية ؟ لا، لم تكن تلك الابتسامة ابتسامة سخرية، لم تكن تبدو كذلك... بل لم يكن ينبغي لها ذلك... كان يفترض بابتسامات عارضات المجلة هي أن تسخر منها لا العكس، ولكن ابتسامتها مع ذلك كانت تشبه ابتساماتهن ! تلك الابتسامات التي كانت تجعلهن جميعهن يشعرن بأنها ابتسامة سخرية منهن... تؤكد لهن أنهن لن يتمكنّ من الحصول على خصور مثل خصورهن... سيقان مثل سيقانهن... أجساد مثل أجسادهن... صور مثل صورهن... إنهن يسخرن منهن... إنهن لا يكترثن بشعورهن. ولكنهن هن كنّ يكترثن بهن... بل ويجعلنهن

محور حياتهن، ومقياس أنوثتهن. ولكنها هي لم تكن مثلهن... ولم تكن تكترث لهن. ولكن ما الذي كانت تفعله هناك إن لم تكن تكترث ؟!

– قد تكون فتاة قروية لم تهب عليها رياح الحضارة وإعلاناتها بعد. همست إحداهن في أذن صديقتها. تبا لهن بنات « البلاد » أصبحن يزاحمننا حتى في علاتنا. غمغمت وهي تكز على أسنانها.

– ولكن لنكن صريحين... ردت بصوت خفيض. لا يبدو إطلاقا من أسلوبها وكأنها قد تدحرجت لتوها من الدوار. قالت وهي لا تزال تتأملها بشي يشبه الإعجاب.

أما هي فتابعت تقليب صفحات المجلة، ونظرات عدم الاكتراث لا تزال ثابتة في عينيها لا يزعزعها شيء. لم تكن تلك حتما فتاة قروية أتت لمزاحمة أحد في تلك العيادة الراقية في « سيدي يايا ». بل كان من الواضح أنها كانت مخبوزة ومعجونة بالخميرة الأوروبية، ومع ذلك كان كل شيء فيها ينضح بعدم الاكتراث. لقد كانت تلك الابتسامة الغريبة لا تريد أن تفارقها... إنها هناك لا تزال منطبعة على شفتيها. مازلن يراقبنها وهن لا يصدقن برود أعصابها،

بينما كان الدم يغلي في عروقهن. كنّ يشعرن بالغيرة من تلك الأجساد المنطبعة على أوراق المجلة، والرغبة الشديدة في تمزيق أجسادهن تعتريهن. لماذا لا يتمكنّ من الحصول على أجساد تلك المجلات ؟... لم تنفع لا حميات ولا عمليات ولا أي حبوب أو كريمات لبلوغ مقاسهن. ولكنها هي لم تكن تكترث، لقد كانت حتما امرأة من نوع آخر ! إنها تبتسم... لا زالت تبتسم. ما سر تلك الابتسامة ؟ ما الذي كانت تعنيه تلك الابتسامة ؟ هل كانت ابتسامة مكابرة ؟ لا، لا تبدو ابتسامة مكابرة. إنها تقلب صفحات المجلة بكل هدوء، وتتأمل صورة كل عارضة بهدوء أكبر من دون أن تنم تقاسيم وجهها عن أي غيظ مكتوم. صحيح أنهن كنّ يحاولن فعل ذلك أيضا، لكنهن لم يكنّ ينجحن، كانت تعابير وجوههن غالبا ما تخونهن، ليفلت من شفاههن وهن يتأملن تلك الأجساد الورقية بين الحين والحين صفار مكتوم يتسرب من ابتساماتهن. لقد كان لون الصفار هو لون المكابرة الذي لم يكن من الممكن تلوينه ولا إخفاؤه بأي شكل كان. إنهن يعلمن تلك الحقيقة أكثر من غيرهن، أما هي فلم يكن هناك شيء من ملامحها ينم عن صفار، بل وربما اختلطت عليهن الأمور لشدة ما كانت تلبسه من

صفار. لقد كانت ترتدي في حركة تحد جلية لهن، اللون الأصفر. إنها فعلا امرأة من نوع آخر. من الواضح أنها لا تكترث. لا بل أكثر من ذلك إنها تتحداهن جميعهن. إنها تلبس الأصفر، لون طالما فضح مكابرتهن... ونصحن دوما بتجنب ارتدائه حتى لا يفضح تفاصيل أجسادهن. ولكنها مع ذلك كانت ترتديه بلون فاقع وكانت تبدو مزهوة فعلا به. من الواضح أنها لم تكن تكترث بما كن يكترثن به، على الرغم من أنها كانت الأشد حاجة للاكتراث منهن.

لم تكن تشبههن. لقد كانت تلك امرأة من نوع آخر. كان جسمها أضخم بكثير من أجسامهن، لقد كانت بدينة... بدينة جدا... إلا أنها لم تكن تكترث. إنها تبتسم. إنها لا تزال تبتسم، وتقلب صفحات المجلة بثقة من دون أن يرف لها جفن. ولكن ما الذي كانت تفعله هناك إن لم تكن تكترث ؟

لقد انقلب عدم اكتراثها إلى شيء يشبه الظاهرة بينهن. يبدو وكأنها قد تحولت إلى مصدر إلهام حقيقي لهن. إنها تجلس هي وجسدها هناك، تلف الساق على الساق بكل ثقة وهي ترتدي فستانا ضيقا يكشف كل تفاصيل

جسدها الضخم، ليزيد لونه في تضخيمه أكثر فأكثر. لكن من الواضح أنها لم تكن تكترث بشكلها. لا... بل كانت لا تكترث بالأحرى لأشكالهن. لقد كانت تبدو واثقة من جسدها، لقد كان ضخما ولكنه كان يعجبها، من الواضح أنه يعجبها، لابد أنها امرأة من نوع آخر. ولكن ما الذي تفعله مع ذلك هناك ؟ ما الذي تفعله معهن ؟ هن اللواتي تدهورت نفسيتهن واضمحلت معنوياتهن بسبب اكتراثهن بتلك الإعلانات التي سلبتهن ثقتهن، وكادت تدمر حياتهن... وثقتهن التي أتين لترميمها هنا... وحياتهن التي يحاولن إعادة بنائها من هنا... من العيادة النفسية.

كنّ جميعهن يعانين من ذات المرض : شدة اكتراثهن. ولكنها هي لم تكن تكترث. كن جميعا يكابدن ذات الهوس : الهوس بأنوثتهن. ولكنها من الواضح جدا أنها لا تكترث. إنها حتما امرأة من نوع آخر. ولكن ما الذي تفعله هنا بينهن ؟

هل وجودها هناك جزء من خطة المعالجة النفسية في علاجهن ؟ ربما، فقد طالت كثيرا فترة علاجهن ولا يبدو هناك أي تحسن عليهن، ولكنهن مع ذلك لا زلن يزرن تلك

المختصة لأنهن يعلمن أنِ الخطأ في تطبيق العلاج يأتي منهن. لقد وصفت لهن كأول خطوة للعلاج توقفهن عن الاكتراث للإعلانات التجارية والدعايات، لكن ذلك كان صعبا جدا عليهن... ولا زلن يكترثن. لم يكن بأيديهن فعل شيء آخر سوى الاكتراث. كل شيء من حولهن كان يدعوهن للاكتراث : الإعلانات... الملصقات... الأفلام... المسلسلات... وحتى المجلات التى كانت موجودة فى غرفة انتظارها هي... وفي عيادتها هي، كانت تدعوهن للاكتراث... لم يكن من الممكن عدم الاكتراث لهن... ولكنها هي لم تكن تكترث. كانت تنظر إلى صورهن بلا مبالاة بل وبشيء من الاحتفاء... على الرغم من أنها كانت أضخم بكثير منهن. كانت تبتسم لصورهن وكأنها تتحداهن... وكأنها تغيظهن... وكأنها تقول لهن... أنا أجمل منكن... نعم : أنا أكثر أنوثة منكن. نعم كان ذلك هو معنى ابتسامتها :

– أنا أكثر أنوثة منكن...

والآن وبحركة تحد صارخة أخرجت من حقيبتها وهي تلقي بالمجلة، بعدم اكتراث أكبر، إصبع شوكولاطة ضخم

من شأنه أن يزيد من وزنها زيادة على زيادة. لكنها لم تكن تكترث ! من الواضح أنها لم تكن تكترث لكل تلك الإعلانات والعارضات والمجلات... لابد انها امراة من نوع آخر. ولكن ما الذي تفعله إذن بينهن ؟

الجواب على هذا السؤال أصبح بالنسبة لأكثرهن لا يهم، المهم أنها زودتهن بالكثير من الثقة، ثقة لم يتصورن قط بأنهن سيمتلكنها قبل أن تصبح أجسادهن شبيهة بأجساد فتيات الإعلانات... ثقة من الواضح أنها لم تكن قد استمدتها حتما من الإعلانات... لا بد أنها لا تكترث بالإعلانات... لكن... وبمجرد ظهور ذلك الإعلان على التلفاز، اشرأبت جميع الأعناق إليه بما فيهم عنقها هي... التصقت أعينهن جميعهن على الشاشة وبما فيها عيناها هي... كن جميعهن مكترثات ولكنها الآن تبدو الأشد اكتراثا بينهن... إنه إعلان الشوكولاطة... نعم... بدت متلذذة بذلك الإعلان وهي تلتهم ذلك الإصبع بنهم أكبر... الشوكولاطة الحبيبة... لقد كانت تأكلها بمتعة، تأكلها كل يوم بمتعة لا تضاهيها متعة... لقد كانت تحبها... إنها تحبها... بل كانت مهووسة بها... لقد كانت تدهن طول أيام السنة جسمها بكريم مسمّر حتى يتلون جسمها بلون

الشوكولاطة... وكان اللون الأصفر لونها المفضل لأنه أكثر ما يبرز لونها... لون الشوكولاطة... !

ابتلعت آخر لقمة من أصبع الشوكولاطة ذاك وهي تستذكر آخر كلمات قرأتها في مقال يشبه « الإعلان » في إحدى المجلات :

« ويحتوي جسم المرأة بشكل خاص على هرمون يجعلها تشعر بالرغبة الدائمة فى تناول الشوكولاطة... لا تخافى من الشوكولاطة إذن يا سيدتي... كلي الشوكولاطة... فالشوكولاطة هي رمز أنوثتك... الشوكولاطة مادة أنوثتك... أبهريه بأنوثتك، ولا تحرمي نفسك من شوكلاطتك ».

نظرن إليها وهن لا يصدقن أعينهن. كانت تشاهد الإعلان بمتعة غريبة... كيف لا تكترث لتلك العارضة النحيفة التي كانت تغيظهن على الرغم من أنها لم تكن أنحف بكثير منهن... وأما هي فلم تكن تكترث لها ! ... إنها لا تكترث... بل بالعكس عادت لترتسم تلك الابتسامة الساخرة على شفتيها. الابتسامة التي تقول :

– أنا أكثر أنوثة منكن...

إنها كانت مؤمنة أن جسمها يحتوي على أكبر كمية من هرمونات الأنوثة... هرمونات الشكولاطة... كانت ابتسامتها تشبه تماما ابتسامة العارضات الساخرة. إنها لا تختلف عنهن. لا إنها لا تختلف عنهن...

كانت ابتسامتها تشبه ابتسامة المكابرة المرتسمة على شفاههن، والتي تقول أنهن يشتقن إلى الطعام لكنهن سعيدات مع ذلك لكونهن صاحبات أجمل وأنحف الأجساد أنثوية...

نحن أشد أنوثة منكن...

كانت ابتسامتهن تشبه ابتسامة المكابرة المرتسمة على شفاهها، والتي تقول أنها تشتاق إلى قوام متناسق، لكنها سعيدة مع ذلك لأن جسمها يحتوي على أكبر قدر من الهرمونات الأنثوية...

أنا أشد أنوثة منكن...

كانت تبدو سعيدة... سعيدة جدا... لم تكن تكترث لهن... ولا زلن لم يفهمن ما الذي تفعله هنا بينهن ؟... كن مدركات تماما أنها امرأة من نوع آخر... لكنهن لم يفهمن أنها مريضة من نوع آخر... وتماما مثلهن.

تواضع فكري

– « ... لم تكن سوى محاولة متواضعة »... قال بصوت مرتعش، بعد أن قرأ نصّه على مسامع زملائه في أول حصة له في المعهد...

– « متواضعة جدا... » أجابت وهي تنظر إليه بسأم.

كانت تتنحنح وهم يقرؤون نصوصهم مسدّدة إليهم نظرات باهتة غير مبالية، لترشق كل واحد منهم بعد انتهائه من القراءة بتعليق مختصر لا يتجاوز عادة الكلمة أو الكلمتين، تعليق ذلق كان له ما يكفى من الأثر لتغيير لون الطالب إلى لون الخردل. كان كل طالب ينتظر دوره للقراءة هناك يشعر بأنه يجلس على كرسي كهربائي بانتظار تنفيذ حكم الإعدام في عقله...

– « ... هذه هي المرة الأولى التي يُطلب مني فيها إلقاء درس بهذه اللغة »... قالت وهي تنظف حلقها...

« فهذا ليس تخصصي »...

تابعت وهي منشغلة بالكتابة على حاسوبها المحمول...

– « لكن هذا لا يشكل إطلاقا أزمة بالنسبة لي... إنها لغتي الأم على أي حال » ثم صمتت لتسمح لهم بحفر هذه الجملة في عقولهم... « فنحن هناك نتحدث جميعا لغتنا بطلاقة... وأعلم أن الأمر مختلف هنا ».

نظرت إليهم بعمق وكأنها تضع خطين على الجملة الأخيرة... « الأمر مختلف هنا ».

هكذا عرّفت الأستاذة الزائرة نفسها على طلبتها في أول درس لها تلقيه عليهم...

****

لم تكن مرتاحة على ذلك الكرسي... كان يبدو وكأنه لا يسعها، كانت تغير جلستها بعد كل دقيقتين وهي تشد طرفي سترتها السوداء الضيقة التي تبدو أصغر

منها بقياسين، وتمط قميصها الأبيض المخرّم الذي كان يحدد ثلاث أو أربع طبقات من الدهون التي تكاد تنفر من خصرها، ويشف عن صدريتها السوداء، المصنوعة على الأغلب في أوروبا، والتي كانت تحشر صدرها على نحو جعله يبدو وكأنه يضغط بشدة على قلبها ويمنعه من العمل بشكل طبيعي فيجعلها تطلق بين الحين والحين تلك الزفرات المشدودة...

كان هذا هو التفسير الذي خرجت به وهي تراقب حركاتها المتشنجة خلسة بعد قراءتها لنصها منذ نصف ساعة... كانت أول من نُفّذ فيه الحكم، لكن من الواضح أنها لم تمت.

أدارت رأسها ببطء إلى زميلتها التي كانت تجلس بجانبها. كانت عيناها مغرورقتين بالدموع... ابتسمت لدى استشعارها نبض حياة فيها... لكن سرعان ما دب القلق في نفسها. كانت عيناها تبدوان مرهقتين... مرهقتين جدا... حاولت لفت نظرها... لا بد أن تكلمها... ينبغي أن تطلعها على سر ضيق الأستاذة الشديد. حمالة صدرها... إنها حمالة صدرها... لم تستجب... تنهدت

بعمق، بلعت دموعها وأطبقت جفنيها. كانت مقتنعة بأن لغتها غير القابلة للإصلاح هو ما يجثم على صدر الأستاذة ويعيق تنفسها، وبحركة بطيئة طأطأت رأسها... لامس ذقنها صدرها... وأغلقت عينيها... هل كانت تحتضر ؟ حاولت أن تلفت انتباهها أكثر من مرة لتتلمس نبض حياة آخر فيها، لكنها لم تفتحهما مجددا.

****

لم يكن البرود الذي كانت تراه في عينيها ليخمد حرارة الأفكار التي كانت تشتعل في رأسها... كانت تتحدث بحماسة عن موضوع رسالة بحثها... تجاهلت نظراتها الجليدية حتى لا تتجمد الكلمات على شفتيها... لم تكن تنظر إلى بؤبؤ عينيها طوال حديثها معها، كانت تركز على الزاويتين الداخليتين لجفنيها اللتين تجمّع فيهما الرّمص الذي استحال لونه إلى الرمادي جراء امتزاجه مع الكحل العالق من الليلة الماضية...

... هذا هو سر بهوت عينيها إذن... إنهما قذرتان... ليتها تنظفهما... واصلت حديثها عن موضوع رسالة بحثها... اللغة من خلال النظرية ما بعد الاستعمارية...

كيف نجعل من اللغة وسيلة للمقاومة... هذه هي الإشكالية... اللغة لغة مقا...

– لا... لا توجد أية إشكالية... قالت مقاطعة وهي تنفث دخان سيجارتها بلا مبالاة من زاوية بسيطة عن يمينها...

جثمت وكأنها تلقت رصاصة على رأسها...

– رسالتك ستتضمن ترجمة عدد معين من الصفحات من أي كتاب أجنبي وتعليقا بسيطا عليها... هذا كل شيء... لن تكون لديك إشكالية، بل ستكون لديك حتما مشاكل في اللغة...

– نعم، ولكن ألا يطلب في البحوث العلمية عادة وجود إشكالية ؟... سألت ببراءة وهي تبلع ريقها...

– هذا هناك. قالت مقاطعة بنفاد صبر. أما هنا فالشيء الوحيد المطلوب منكم هو أن تكتبوا بلغة سليمة...

نظرت إليها وآثار الصدمة بادية على وجهها، وبحركة غير إرادية رفعت سبابتها إلى زاوية عينها... ليتها تنظفهما...

****

استلقت على سريرها بعد يوم مضن والأفكار تتزاحم في رأسها... تناولت جهاز التحكم عن بعد وأخذت تقلب بين القنوات... دومينيك تتمايل على المسرح... مروى تتقلب على السرير، حمالة صدرها ذكّرتها بشيء ما... لماذا أصرت الإدارة على أن تشرف هذه المرأة على رسالتي ؟... هل زملاؤها على حق ؟ هل توجد مؤامرة ما ؟ هل تتواطأ مع الإدارة ضدي ؟... قذرتان... نعم عيناها كانتا قذرتين جدا... لكن كيف يمكن لأستاذة من هناك أن تتورط في مؤامرة قذرة هنا... دعارة... نضال الأحمدية تحاور عارضة أزياء متهمة في قضية دعارة بفرنسا... أخذت تقلب القنوات بعصبية... لكن كيف يوافق أستاذ جامعي عموما على الإشراف على رسالة بحث دون أن يعرف موضوعها ويأتي بعد فترة ليرفضها ؟ « هذا البلد كان ولا يزال وسيبقى دوما منارة للفكر »... ضيف « خليك بالبيت » يصرّح... بكل تواضع... لم تسألني حتى ما عنوان الكتاب الذي أنوي تخصيصه ببحثي قبل أن تعطيني موافقتها منذ شهر... هل كونها من هناك يخولها الإشراف على أي موضوع نختاره هنا ؟... والآن لماذا تأتي وترفضه... لماذا تريدني أن ألغي فكرة بحثي

من أساسها... لماذا ترفضني وترفض بحثي ؟... اللغة كوسيلة للمقاومة... مقاومة المستعمر... « أشعر بالخجل عندما اسمع البعض يتحدث عن ذلك البلد كصديق حميم، بينما نكّل صديقهم ذاك ببلد شقيق لأكثر من قرن »... نضال الأحمدية مجددا... « لله درّك... كان جوابك صحيحا »... مذيع برنامج مسابقات شهير يتهكم على متسابق مغاربي يصر على الحديث باللغة الفصحى... شعرت بالاشمئزاز... أطفأت التلفاز وهي تفكر... كانت تنظر إلي ببرود... كانت تتنهد بضيق... كانت تود أن تلغيني بنظراتها... هل تريد إلغائي ؟ أم إلغاء بحثي ؟ أم... ؟... لا... لا... لابد أن المشكلة تكمن في حمالة صدرها وبقايا الوسخ العالق في عينيها...

****

أرجوكم... « سلطات عامة... عامة »، وليس « عمومية »... قالت بضيق وهي تصحح « خطأ » من هذا النوع للمرة العاشرة... « أعلم أنكم هنا تقولون هذا... لكن الأمر مختلف هناك... سجلوا المصطلحات التي أقولها واستخدموها لو سمحتم...

– ولكن لماذا لا تتبنون هناك ما نقوله هنا وليس العكس يا أستاذة ؟ صاح أحد الطلبة مستغربا...

وبقسوة رمقه جميع من كان في القاعة بنظرة عتاب مخجلة جعلته يتجمد على كرسيه. كيف يسمح لنفسه تبني مثل هذا الخطاب المتعصب هنا ؟!

لم تكن هي تركز كثيرا عما يدور حولها... كانت تفكر في بحثها... كانت منغمسة في موضوع بحثها... اللغة كوسيلة للمقاومة... كانت مصرة على رسالتها...

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

« ... جهدكم مشكور على أي حال » أجابت بملل. « لكن ما نقوله هناك أصح... فأنتم هنا انقطعت علاقتكم باللغة لأكثر من قرن... »

التقطت أذنها الجملة الأخيرة. هل لهذا علاقة ما بموضوع بحثها ؟... « أنتم هنا انقطعت علاقتكم باللغة لأكثر من قرن » !... عما تتحدث ؟ حاولت أن تتابع النقاش... لكن الجميع من حولها قد صمت... « أنتم هنا انقطعت

علاقتكم باللغة لأكثر من قرن ». لا... لا، لا تتحدث حتما عنا ! ... عادت للتفكير في شعر ابن باديس منذ حوالي قرن :

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

****

جلست على الكرسي، وأخذت نفسا عميقا. كانت أول من سينفّذ فيها الحكم. اتصلت بها الإدارة قبل يومين لـ « تدعوها » لمناقشة رسالة بحثها... المشرفة لم ترسل ملاحظاتها على البحث إلا قبل بضعة أيام على الرغم من أنه بقي عندها منذ أشهر... « أعيدي النظر في كل العمل »... ويبرمجون مناقشة الرسالة اليوم ؟! ... هل تتآمران ضدي ؟... قذرتان... نظرت إلى عينيها مجددا... نعم... لا تزالان قذرتين... يبدو أن قذارتهما مزمنة... لابأس... لكن ينبغي لهذه المسرحية أن تنتهي على أي حال اليوم... سئمت... لابد أن تنتهي اليوم...

****

سمعت الحكم... كان متوقعا... ابتسمت... صافحت لجنة المناقشة... سلمت على زملائها... التقطت الصور... شكرتها...

– هذا حتى تتعلمي التواضع الفكري...

****

جلست أمام حاسوبها. كانت تشعر بالضجر. كم كانت مملة تلك المسرحية... فكرت في بطلتها، وفي آخر مشهد لها...

« ... هذا حتى تتعلمي التواضع الفكري » !! ...

– « كانت تبدو مغتاظة... » فكرت وهي تحدث نفسها... « ربما لم يكن علي أن أعمل مع أستاذة تعاني من مشاكل مع حمالة صدرها ! ... » فكرت وهي تدخل كلمة المرور... « والأسوأ أنها لا تنظف عينيها... ».

وفجأة ظهرت أيقونتها الخضراء من أسفل الشاشة... نعم إنها هي... إنها على الخط... زميلتها... نعم زميلتها التي كانت تحتضر... مضى وقت طويل على رؤيتها...

– أين أنت ؟ لِم لم تحضري مناقشتي اليوم ؟ فوّتّي على نفسك مسرحية مسلية.

– ... لقد سئمت من كل مسرحياتهم...

– طيب... متى ستناقشين رسالةً بحثك ؟

– لا أعرف... ربما عندما أعود من فرنسا...

– وماذا تفعلين أصلا هناك ؟

– أدرس... سجلت في السنة الأولى...

– ماذا ؟... قالت مقاطعة... ألم يكن الأجدر بك أن تناقشي رسالتك هنا حتى تتابعي دراستك في مستويات أعلى هناك... بدلا من...

– ... مستويات أعلى ؟! قالت مقاطعة وهي تقهقه... أدرس بمستويات أعلى هنا بماذا ؟!! بالشهادة التي أجهدت نفسك للحصول عليها هناك... إنها شهادة لا يعترف بها أحد هنا... !

– ماذا... ما الذي تقولينه ؟! ... غير ممكن ! ... كانت جهود الإدارة وكل الأساتذة واضحة للحصول على الرضا... كيف بعد كل ما فعلوه هنا، لا يحصلون على الرضا من هناك... ؟

– نعم... جهودهم مشكورة على أي حال... ولكن علاقة كل أولئك هناك قد انقطعت مع العلم لأكثر من

قرن... من المنطقي ألا يعترفوا هنا بشهادتهم... لقد أكدوا لي هنا أنها شهادة متواضعة... متواضعة جدا... حتى بالرغم من كل الجهود للحصول على الرضا... الدراسة هنا أفضل... إنها حتما أفضل...

وتابعت حديثها، بينما بقيت هي تلك الكلمة ترنن في أذنها... « متواضعة »... « متواضعة جدا »... لقد أجهدت نفسي في بحث شاق من أجل الحصول على شهادة متواضعة... فهمت كلامها الآن... « هذا حتى تتعلمي التواضع الفكري »... كان علي أن أتواضع من أجل أن أحصل على شهادة متواضعة بجدارة... فهمت كل شيء... فهمت نظراتها... فهمت ضيقها... فهمت كل شيء... كم كانت متواضعة...

– لكن كيف ستتحملين الدراسة سنوات طويلة هناك ؟

– هناك ؟ آه... تقصدين « هنا » ؟ الأمر مختلف هنا...

وسرعان ما تزاحمت الأفكار واحتشدت العبارات في ذهنها... كانت قد سمعت هذا العبارة في مكان ما... « الأمر مختلف هنا » لكن هنا هنا ليست نفسها هنا

هناك... أو ربما هذه الهنا هنا هي عينها تلك الهناك هناك... لم تعد تعرف... اختلطت عليها الأمور...

– هنا يوجد أمل... تابعت... الجميع يشجعني... وأنت أيضا لا تبقي هناك...

جثمت وكأنها تلقت طلقة رصاصة على رأسها... تنهدت بعمق، بلعت دموعها وأطبقت جفنيها... وبحركة بطيئة طأطأت رأسها... لامس ذقنها صدرها... وأغلقت عينيها... « هنا يوجد أمل... لا تبقي هناك »...

عليها ثلاثة عشر...

عليها ثلاثة عشر... نعم ! ثلاثة عشر... ! فكرت وهي تنظر إلى طاولة « العشاء الأخير » لدافينتشي وهي تدون ملاحظاتها عن آخر حالة كانت مستلقية لديها على طاولة التحليل النفسي لنهار اليوم.

لم تكن الحالة الثانية عشر من نوع خاص. كانت تعاني كغيرها ذات المشكلة التي كانت تعاني منها كل المريضات اللواتي سبقنها. ولكن المشكلة ظهرت معها هي بشكل خاص. لقد ظهرت في حمالة صدرها ! كانت حالتها غريبة نوعا ما، لكنها كانت تعاني أزمة حقيقية مع حمالة صدرها. كانت مصرة على ارتداء صدرية تصغرها بعدة قياسات مع اقتناعها الشديد أنها تناسبها.كانت حمالة صدر تكتم على نفسها لكنها كانت مصرة على ارتدائها... كانت

تبدو مثيرة للشفقة وهي محشوة في داخلها لكنها كانت مصرة على ارتدائها هي ذاتها وعدم تغييرها إلّا بحمالة صدر أخرى من الماركة الفرنسية ذاتها التي لم تكن تصنّع « للأسف » حمالات صدر من قياس صدرها، ومع ذلك كانت مصرة على ارتدائها... كانت ببساطة وفية لتلك الماركة على الرغم من أن صاحبها كان يبدو وأنه لم يسمع يوما عن وفائها... من الواضح أنه لم يكن يعرف امرأة بقياس صدرها... أو لعله كان يعرفها ولكنه لم يكن يعترف بها !... أو ربما سمع بولائها له وأصر لسبب ما على تجاهلها... لقد كان حتما يستخف بها لكنها مع ذلك كانت مصرة على مواصلة التزلف له واقتنائها... كانت مثيرة للشفقة لكنها كانت مصرة على ارتدائها، والتفاخر بها... كانت حجتها أنها حمالات صدر ذات نوعية فاخرة وهي لا ترضى لنفسها إلا ارتداء النوعيات الممتازة من الثياب الداخلية وحمالات الصدر المصنوعة بفرنسا بالتحديد... كانت تتفاخر بها على غيرها... إنها ترتدي حمالات صدر فرنسية... إنها لا تلبس ماركات غيرها... إنها لا تسمع بماركاتٍ غيرها... لا تعرفها، لا تؤمن بها ولا بقياساتها ولا بوجودها أصلا... إنها لا تريدها... إنها

ليست على قياسها !! ....ولكنها لم تكن مع ذلك مريضة من نوع خاص... لقد كان مفتاح معضلتها هو... هو... مفتاح غيرها...

- الرّجل... فتشي عن الرجل...

كانت تلك هي نظريتها. لم تكن تفتش إلا عن الرجل في كل جلسة تحليل نفسية تخضعها لمريضاتها... وكان دوما هو... هو... محور حياتها.

وعلى الرغم من أن هذه الحالة حالة أستاذة جامعية يفترض أن عقلها لابد أن يكون أكبر بقليل من صدر مراهقة كانت تسعى للتشبه بممثلات هوليوود بقصة شعرها، وشكل أسنانها لجذب الأنظار إليها وإرضائه... أو الفتاة القروية التي أعياها تباطؤه في القدوم لخطبتها فقررت اللجوء لتخدير عقلها وفك سحرها... مجددا لإرضائه... أو الباحثة المحترمة التي لا تزال عزباء وأصبحت من قراء « برجك إيه » حتى تجذب إليها أي شخص كانت مستعدة لمحو شخصيتها أمامه... ومرة أخرى... فى سبيل إرضائه... أو تلك المهووسة بالتسوق أو عمليات التجميل أو الماكياج أو الريجيم... واللواتي لم يكنّ يسعين إلّا لإرضائه...

وإرضائه... وإرضائه... وحتى الثورجية... والقومجية... والكلمنجية منهن لم يكنّ يفعلن ما يفعلن في الواقع إلا لإرضائه... لقد كنّ جميعهن يتقنّ لإرضائه... كنّ جميعهن يرغبن في إرضائه... يعملن لإرضائه... يحلمن بإرضائه... حتى من كانت تبدو وكأنها من نوع آخر لم تكن تبغي سوى إرضائه... ولكن للحظة بدا لها أن هناك خللا ما في المعادلة... الحالة الأولى... نعم الحالة الأولى... هل كانت امرأة من نوع خاص ؟

فكرت وهي تعيد الاستماع للتسجيل الأوّل وقد بدأت تشعر باضطراب ممزوج بحماس علمي خاص... إنها تفتش الآن عن الرجل... عادت للاستماع للتسجيل مجددا وهي مصرة على إيجاده... لابد ان تجده... كان ذلك هو التسجيل الذي يخص سيادتها... كانت سيادتها تتحدث فيه عن سيجارتها... لم يكن يهمها إن كانت هي من يحاول قتل سيجارتها أو أن سيجارتها هي من يحاول قتلها... ولكنها الآن تفتش عنه هو... لحد الآن لم تجده في قصتها... إنها لا تجدها إلا هي... ولكنها تفتش عنه هو... إنه هو المفتاح... إنه هو... لابد أنه في مكان ما هنا... إنه

في مكان ما... وكعادتها، عندما تشعر باحتباس ذهنها، كانت تكفيها لحظات قصيرة تمضيها في تأمل تلك اللوحة لتعود وتنسكب الحلول مجددا في رأسها.

كانت تلك هي « العشاء الأخير »، لوحة دافينتشي الشهيرة. وقفت تتأمل الحواريين الستة الجالسين إلى يسار المسيح في « العشاء الأخير » متفحصة بإعجاب وجوههم الرجولية المرسومة بدقة وملامحهم الخشنة المصورة بمهارة متناهية. كانت تلك هي لوحتها المفضلة. كانت تضعها في صدر مكتبها، المكان الذي تمضي فيه جل وقتها. كانت تمضي ساعات طويلة وهي تتأمل تفاصيل الثلاثة عشر الجالسين على الطاولة. كان دافينتشي حتما فنانا عبقريا. كانت تشعر وهي تتأملهم متحلقين على الطاولة بأنها تراقب أشخاصا حقيقيين ماثلين أمامها بشحمهم ولحمهم، لا مجرد صورة ميتة محبوسة داخل إطار ذهبي غال طلبته على القياس من بائع اللوحات مثلما يطلب أي تابوت خشبي راق من بيوت تحضير الأموات. كانت تلك صورة حية... كانت تحب تلك اللوحة... كانت تفاصيلها كلها حية... كانت تحب دافينتشي وتشعر أنه رسم تلك اللوحة الحقيقية لأجلها لتؤنس وحشة مكتبها، وتملأ عليها فراغ

عيادتها من رجال حقيقيين وليس فقط من ظلال لهم تعثر عليها في أعماق نساء يأتين للعلاج عندها. كانت تتأمل تلك اللوحة كلما بدأت مهمة جديدة في « التفتيش عن الرجل » في أعماق نفسية امرأة جديدة نشدت عيادتها، ولم تخيب يوما تلك اللوحة ظنها... كان يكفيها أن تنظر إلى تفصيل واحد من تفاصيل أي واحد من رجال اللوحة الثلاثة عشر حتى تنبجس صورة الرجل الناقص في معادلة التحليل من نفسية امرأة استلقت على طاولتها... كانت تلك اللوحة وطاولة عشائها ملهمتها الحقيقية... كان دافينتشي حتما بارعا في رسم وجه الرجل وكانت هي أبرع في البحث عنه...

كانت مولعة بالتفتيش عن الرجل. كانت تبحث عنه في كل مكان... وكانت تجده في كل مكان، لقد كانت كل مريضاتها من النساء اللواتي كنّ يبحثن هن الأخريات عنه ولا يجدنه... إنها الآن لا تزال تبحث بين تفاصيل وجوه « العشاء الأخير » عن الوجه الأول الذي مر على طاولتها ولم تتمكن لوحة دافينتشي من إلهامها صورته بعد...

لقد كانت مصرة على البحث عنه... كانت تفتش عنه... ولكنها لا تجده...

- أين هو ؟

فكرت وقد لجأت لكتاب التحليل النفسي لفرويد... كان ذلك هو كتابها المقدس... أخذت تقلب صفحاته وهي تأمل أن تجد ما يساعدها للعثور على الرجل الثاني عشر الناقص من معادلة نفسيات النساء اللواتي خضعن للتحليل على يديها لنهار اليوم... لقد كنّ اثنتي عشرة امرأة ولابد أن أجد في قصصهن اثني عشر رجلا...

رفعت رأسها مجددا إلى اللوحة وأخذت تتأمل هذه المرة الحواريين الستة الجالسين على يمين المسيح باحثة في وجوههم عن رجل اليوم الأول... أخذت تتأملهم واحدًا واحدًا... ولكنها لم تصل إلى شيء... والآن وبأناة أكبر وصلت لآخرهم... لا بل لأولهم... إنه الحواري الجالس على كرسي الشرف إلى جانب بطل اللوحة... إنه أولهم... لقد كان ذا شعر أحمر غزير... ويدين ناعمتين... وأصابع رقيقة، وشيء يشبه... يشبه... صدر المرأة ! لقد كان حقا امرأة... نعم، لم يكن عليها سوى اثنى عشر... لا يوجد على تلك

الطاولة إلا اثنى عشر رجلا فقط ؟ لا يوجد سوى اثنى عشر رجلا !... مستحيل، اثنا عشر رجلا وامرأة واحدة... هل هي امرأة ؟ هل هي حقا امرأة ؟

كانت تعلم بوجود تلك الفرضية سابقا، وأن هناك من يؤمن بضرورة التفتيش عن المرأة في عشاء دافينتشي الأخير، بل وفي كل مكان... لكن لم يعجبها أن الفكرة قد نطت إلى دماغها في غمرة تفتيشها هي الآن عن الرجل... إنها تفتش الآن عن الرجل... لا عن المرأة... وتناولت بسرعة كتاب فرويد لنشدان خلاصها من هذه الأزمة...

– لابد أن الحواري الأول الجالس على مقعد الشرف رجل لا امرأة...

كان دافينتشي حقا بارعا في رسم الفروق بين المرأة والرجل... ولكنه قد يكون رسم رجلا بملامح امرأة... الطب النفسي لديه حل لهذه المعضلة... هناك رجال يشبهون النساء ونساء يشبهن الرجال... ولكن... ماذا لو كان كل رجال الطاولة نساء... وجميع نساء الطاولة رجالا... !!!

– لا... لا...

ارتجفت من الفكرة وحاولت دفعها من ذهنها... وفجأة ألهمتها تلك الفكرة الحل... أخيراً أتى خلاصها... لقد عثرت عليه... عثرت على الرجل الأول المفقود من على طاولتها... رجل « سيادتها »... إنه يجلس أيضا على كرسي الشرف في مكان ما... كيف لم تفكر فيه من قبل مع أن صورته كانت هي الأوضح من بين صور جميع الرجال... إنه ببساطة الرجل الذي وضع « سيادتها » على كرسيها... إنها تحاول هي الأخرى المحافظة على رضاه ليبقيها دوما متربعة على كرسيها...

– لابد أن سيادته الأعلى من « سيادتها » يشبه النساء هو الآخر أكثر مما يشبه الرجال لذلك لم ألتقط صورته داخل نفسيتها بالسرعة التي عثرت بها على بقية الرجال بكل سهولة...

لابد أن يكون هذا الرجل شيئا بين الرجل والمرأة... قد يكون لا هذا ولا ذاك... قد يكون رجلا منقوصا... مجرد ذكر... أو ببساطة لا رجل... نعم لابد أنه لا رجل... ولكن هذا الآن لا يهم... المهم أنها وجدت اليوم الاثني عشر رجلا الذين كانت تبحث عنهم ولا يهم إن كانوا مكتملي الرجولة أم لا...

المهم أن الرجل الثالث عشر بينهم كان حقا رجلا... لم يكن هناك مجال للشك في الأمر...

فكرت وهي تطبع قبلة على وجه مخلصها الذي كانت صورته ملصقة على الغلاف الخارجي لـ « التحليل النفسي »... لابد أنه حتما راض عنها...

الفهرس

سيجارتها 7

السّمراء 19

ثورتهـ « ن » 33

أحلام بلهاء 47

غانيات 59

قضية ديالكتيكية ..... (9

القناع 79

بين « رون » وذي الرمة 89

أبراج قمرية ..... (((

تكلّمي 111

من نوع آخر 121

تواضع فكري 131

عليها ثلاثة عشر 145

تتناول **أمل بوشارب** من خلال **عليها ثلاثة عشر** موضوع المرأة المعتم الشفاف... فتأخذنا وبجرأة إلى كواليس عالم يبدو أن المرأة فيه لا تزال تحن إلى الجارية التي بداخلها... عالم من حريم القرن الـ 21 لسلاطين يعيشون في الأعماق الحالكة لنساء لا زلن متخاصمات مع لباسهن، ولون بشرتهن، ويتسابقن على رضا حاكمهن... نساء تتناول قصصهن في سيجارتها، ثورتهن، تواضع فكري، وغيرها من القصص، فتمر جميعهن الطالبة، والصحفية والباحثة، والمسؤولة على طاولة التحليل النفسي في **عليها ثلاثة عشر**.

أمل بوشارب، كاتبة جزائرية ولدت بدمشق – سوريا سنة 1984. **عليها ثلاثة عشر** هي أول مجموعة قصصية تنشرلها بعد فوزها بجائزة المهرجان الدولي للأدب وكتاب الشباب عام 2008.

9 789947 390665

CHIHAB